تميمة الحظّ

لا يعمل للأبد

رواية

رانية الغول

رانية الغول

تميمة الحظّ

لا تعمل إلى الأبد...

رواية

تميمة الحظ لا تعمل إلى الأبد

الكاتبة رانية الغول

دار النشر: دار يس للنشر

ر.د.م. 9 784015 789938

ك:

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

البريد الإلكتروني: nejibaboughanda@gmail.com

العنوان: 4 شارع الحدائق، إقامة فردوس الحياة وادي الليل2021 منوبة

الهاتف: (+216) 21 972 951

المغاربية للطباعة وإشهار الكتاب

الاعتداء

رن جرس المدرسة مسترسلا وتواصل حتى اختلط بصخب الطلاب يغادرون صفوفهم في هرج يتصاعد كلما اقتربوا أكثر من الباب الخارجي. رغم اقتراب المساء راميا على الأكتاف مسحة التعب والفتور، ورغم انطفاء نور الطاقة في أعين البشر في هذا الوقت من كل يوم، إلا أن جمع المراهقين كان يشع بل يتقد شحنة وحياة.

من بينهم، خرج فتًى يمشي في تؤدة لا ينظر يمينا ولا يسارا رغم تدافعهم حوله ودفعهم له أحيانا. ترابيّ لون الشعر، غزيره، ذو عيون مستديرة زرقاء صافية، وبشرة فاتحة تميل إلى الاحمرار. ملامحه متناسقة، ممتلئ الجسم نسبيا متوسط الطول، محتفظا على نظافة هندامه مقارنةً بأترابه. ولولا قصر شعره ولباسه، لكان أشبه بالبنت من الولد. يتمسك بحمالتي حقيبته كأنما يحافظ بها على توازنه أثناء المشي، عيناه تحدقان في الباب الخارجي كأنه مبتغى بعيد المنال. وما إن أدركه حتى زاد في سرعة خطواته كأنه سينطلق جاريا بين لحظة وأخرى. وهنا ظهر من بين الجمع زُمْرَة من أربعة طلاب يقاربونه سنا يسرعون في خطاهم على نفس وتيرته يتخاطبون بينهم بكلام غير مسموع، يلتفت أحدهم بين الحين والآخر إلى

الخلف بينما يركز الباقون انتباههم على الفتى في المقدمة حتى لا يضيع منهم.

كان الفتى مدركا لما يحدث ولما يضمرون له ورغم خوفه الشديد الذي تجلى في احمرار وجنتيه وعينيه، إلا أنه لم يلتفت إلى أي كان ولم يبحث عن أي نجدة، فقط واصل مسرعا خطاه. بدا له أنه لو انزلق إلى طريق فرعي أثناء مرور إحدى السيارات جانبه فربما يفقدون أثره. ولم يكن مراده صعبا فالسيارات تتوالى والفرص كذلك. وما إن وافق مرور عربة اقترابه من سبيل ضيق لا يكاد يلحظ، حتى دلفه وانطلق يعدو لا يجسر على الالتفات.

لم يكن يعرف إلى أين يؤدي الطريق ولا إن كان سيجد طريق العودة، كل ما كان يهمه هو الإفلات...
انقطعت أنفاسه واقشعر بدنه من برودة الهواء على جسمه المتعرق، فتوقف واضعا يده على صدره خوف انفجاره، وظلّ يتنفس بقوة لا إراديةٍ محاولا استرجاع أنفاسه العادية وتهدئة دقات قلبه. آنذاك بدأ بإدارة نظره في المكان باحثا عن ذكرى معرفة به.

وجد نفسه في حي سكني، بيوته متباعدة تلتف كلها حول بطحاء رملية جرداء، بعضها بدأت في إنارة غرفها ولكن الحي خالٍ من أي إضاءة عمومية.

لفت انتباهه منزل يتوسط الحي رمادي اللون ومظلم، حتى أنه بدا مهجورا، فلم يعره اهتماما. أو تعمد ألا يعيره اهتماما لأن ما يهمه الآن هو طريق العودة. مشى بضع خطواتٍ نحوه إذ رأى إضاءةً تتردد في أحد الشارعين المحاذية له. بَغْتَة، سمع صوتا يعرفه جيدا يصرخ:

- هاهو ذا!!

وما هي إلا لحظات حتى كانوا يحيطون به وضحكاتهم تتعالى أبواق حرب معروفةٌ نتائجها ...

- ماذا الآن؟ ماذا تريدون؟

كان صوته متماسكا ثابتا لا يناسب موقفه البتة.

واصل الأولاد زهزقاتهم المستفزة وبدأوا في دفعه بينهم مشتتين ثباته ودفاعه عن نفسه. ولكنه كان كالمسمار المدقوق في خشبة، راسخا على الأرض لا يتحرك إلا كتفاه، ينقل نظره بينهم الواحد تلو الآخر محاولا توقع ما يلي.

- لا تقوموا بعملٍ خاطئ قد يستوجب عقابكم أو يجركم للندم.

وكأن كلماته زيتٌ يسكب فوق النار، إذ انفجروا مقهقهين ساخرين من تحذيراته ورباط جأشه الزائف.

والظاهر أن فكرةً ما قد خطرت على بال أحدهم فمال على صديقه الذي تبدو عليه الزعامة وهمس بها في أذنه. وقطعا قد أعجبته للغاية إذ أطلق صيحة انبهار وحماس قائلا:

- هه هه أكيييييد!!!

كان الفتى يتحرق فضولا وخوفا وحذرا، يقفز نظره من وجه إلى وجه، إلى شفاهٍ، إلى حركات أصابع، محاولا توقع ما يكيدون به له. فالتقطت عيناه إشارةً من زعيمهم إلى الولدين الأخيرين ثم إلى البناية المهجورة. وهنا لم يعد يرى سبلا أخرى للنجاة سوى الصدام، ودون أي تردد اندفع بكل ثقله بين الولدين مسددا لكلٍ منهما ضربةً عنيفةً بكف يده مما سبب سقوط أحدهما وإضطراب الباقين إلا من أحدهم الذي انقض على حقيبة الفتى فجذبه منها وأسقطه على ظهره فانتبه الباقون وسقطوا فوقه تباعا حتى شلوا حركته ودفاعه.

كان مكبل الأطراف، ولكن واصل النِضَال بكل هيجان وشراسةٍ فوَلَّدَ إصرارا لديهم على القيام بما قرروا فعله...

دفع الولد الذي كان في المقدمة الباب الحديدي للمنزل المهجور بظهره وهو يمسك بإحدى ساقي المقبوض عليه بحزم. أحدث الباب صريرا كأنه شفرة حادةٌ تلامس قلبه المرتجف خوفا وغضبا. تجاوز جمع الجناة الصغار حديقة المنزل بسرعةٍ حاملين بين أذرعهم المسكين الذي لا ينفك يعاند

دون جدوى وهو ينظر من بين أكتافهم إلى الأشجار الضخمة والأعشاب الداكنة والنباتات اللاصقة في الحيطان والتي تختلط بخيوط العناكب.

كل ذلك لا يساوي شيئا أمام الرائحة التي اقتحمت أنفه وفؤاده بوابلٍ من رعبٍ ووحشةٍ، رائحة تجمع بين الرطوبة وأبخرةٍ وأعشابٍ وغبارٍ...
ما لبثوا أن كانوا أمام الباب الخشبي للبيت المهجور والذي كان نصف مفتوح فدفعوه بقوةٍ ورموا الفتى داخله وأسرعوا بإغلاق الباب وتكاتفوا على الإمساك بمقبضه لمنعه من الخروج وقد تعالت ضحكاتهم حتى تحولت إلى هستيريا معدية.

الغريب والذي قطع حبل نشوتهم أن الولد داخل المنزل لم يحاول فتح الباب ولا أصدر صوتا واحدا!!

بدأوا بتبادل نظرات التساؤل وقد خبت ضحكة الشماتة في وجوههم، وارتخت أيديهم من على المقبض حتى نطق أحدهم:

- أين هو؟

لا أحد منهم يعرف، فأضاف:

- أترى حدث له مكروه؟ ربما أغمي عليه من الخوف!

وهنا تبادلوا ابتسامات سخريةٍ، حتى عقب آخر:

- ربما هي طريقة لإلهائنا حتى ننصرف ونتركه فيخرج... إنه شيطان ماكر. هل رميناه بعنف إلى هذا الحد؟ لا أظن.

فحسم قائدهم الموقف قائلا:

- سنفتح الباب ونرى.

وهنا تراجع الثلاثة إلى الخلف خوفا من اقتراحه.

- ما بكم؟ ماذا سيحدث؟ البيت مهجور... لا أحد فيه.

فتكلم أحدهم مرتبكا وكان صاحب الفكرة منذ البداية:

- من قال هذا؟ نحن لا نعرف هذا البيت وقد وجدناه اليوم صدفة. ثم من أدراك أنه غير مسكون؟

فتولى عنه آخر بقية الكلام:

- وحتى إن لم يكن كذلك، ما أدراك أنه لا يتحضر في الداخل بأداةٍ ما ليصيبنا بها إذا فتحنا الباب؟

وامسك بالتالي مقبض الباب ثانيةً تحسبا لما فكر فيه. فعقب رئيسهم:

- وماذا لو حدث له شيء؟ ستكون مصيبة !

فأجابه:

- ماذا يمكن أن يحدث؟ هل أصبناه بضرر عندما رميناه؟ أو ربما هاجمه شبح بالداخل... اسمعوا، هذا سببٌ آخر لئلا نفتح الباب.

ماذا نفعل من أجله؟ يجب أن ننكر أصلا أننا رأيناه أو تسببنا له في شيء. يجب أن نذهب.

وأكمل عنه صديقه:

- بل نهرب يا رجل! ونصل إلى بيوتنا في أسرع وقت ممكن حتى لا يشك أحدٌ فينا هذه الليلة بالذات.

والظاهر أن قوله هذا قد لقي من الباقين أحسن قناعةٍ وتجاوبٍ إذ بدأوا في التراجع الواحد تلو الآخر وهم يراقبون الباب والمحيط للتأكد من أن أحدا لا يراهم. وما إن وصلوا إلى خارجه حتى انطلقوا كفئرانٍ خلفها الطوفان لا يلتفتون خلفهم. ثم افترقوا كلٌ إلى بيته ورؤوسهم تجيش بالأسئلة والاحتمالات.

ولكن القرار الثابت في وعيهم جميعا أنهم سيكونون على طبيعتهم ما استطاعوا الليلة بالذات بين أهاليهم.

الحظّ

أغلقت باب شقتي واتجهت نحو السلالم مغادرا البناية التي أسكنها. أحب هذا الوقت من النهار عندما أفتح باب الخروج فيلقاني هواء الصباح المنعش، أبدأ في التنفس بعمق كأنني سأملأ بالنقاء كل جسمي حتى أطراف أصابعي.

الحي ساكنٌ لا حركة ولا ضجيج إلا من البواب الذي يعترضني كل صباح مبتسما وفي يده كوب صغير من القهوة قائلا:

- صباح الخير يا دكتور، ثم يعقب على إجابتي: يوما سعيدا. ويمتص ابتسامته فور مجاوزتي له.

ليتني أخرج يوما ولا ألقاه فهو يشوه جمال اللحظة. رجل متملق وفضولي. ركنت سيارتي في موقف سيارات المشفى الخاص بالأطباء وانطلقت أعبر الأبواب والممرات نحو عيادتي. في هذا الوقت لا أصادف إلا شخصين أو ثلاثة قبل الوصول، وهذا تماما ما أريده.

أنغمس في عملي لمدة ساعةٍ تقريبا حتى تنطلق مناوبات العمل الصباحية ويأتي صديقي الممرض عباس.

لا أعني بصديقي ما تعنيه الكلمة في المتعارف، بل هو شخص مقرب فقط. حسنا! ليس تماما! بالأحرى الشخص الوحيد في المستشفى الذي أسمح له بالحديث معي خارج إطار العمل.
شخص ظريف، لا أدري من أين يأتي بالترهات المضحكة طيلة اليوم! إنه يضحكني على كل ما نقابله يوميا، يضحكني حتى على نفسي وعلى تصرفاتي. بل يبدد تركيزي أحيانا ولكني أسمح له. إنه أحد الأشخاص الذين تضعهم الأقدار بين طيات أيامنا حتى يطري قسوتها وقفرها.

لا أقصد أن حياتي قاسيةٌ، أبدا! فأنا طبيب جراح متفوق على زملاء المهنة، متميز وذو صيت، مرتاح ماديا إن لم أقل ثريّا، غير أني لا أحب مظاهر البذخ ولا أسعى لها. ولا أواجه مشاكل عامة، فقط بعض الصعوبات أحيانا في عملي مع بعض الحالات المتفردة من المرضى أو المصابين وأنجح عادةً في شفائها.

يقول ممرضي إن هذه الحالات تواجهني نتيجة حسد المحيطين بي حتى يصيبوني بالتعب والإرهاق وانعدام الحيلة! أي من منظور هذا السيد المحترم، فأنا لا أقلل من احترامه رغم أني أقلل من إمكاناته العقلية. فهو يعتقد أن مرضاي مهما تناولوا من أطعمة سكرية أو دهنية أو مضرة عامةً، ومهما استهلكوا موادا مخدرةً وخبيثة ومهما مارسوا من عادات رديئةٍ في حياتهم... فإنهم كانوا سيبقون على ما يرام مادام الناس لا يحسدونني... أنا!

فيجيبني بكل ثقة:

- بل كانوا سيذهبون ليتعبوا طبيبا غيرك
- حسنا، ماذا لو أنني الملاذ الأخير والأمل الأكبر لدى مرضى ومصابين كثر في بلادنا؟ ألست كذلك؟
- بلى، أنت كذلك، لكن كنت ستجد لهم الحل بسهولة أكبر، يعني أن حسدهم لك يسبب غفلتك عن بعض الحلول التي كنت تعرفها أصلا.
- لست مخطئا، أنا آسف أني طرحت عليك أسئلة كثيرةً، يمكنك تناول مشروبٍ من ثلاجتي، هيا خذ شيئا تبل به حنجرتك.
- أنت يا دكتور لا تعترف بالهزيمة، تسخر مني؟ بل اعترف أنك عنيد والعناد يمنعك من التعلم.
- يمنعني أنا!

وهنا لا أمسك نفسي فأنفجر ضاحكا من كل قلبي. أعرف أنه لا يقصد ما يقول. هو يحرك دفة الحوار حتى نضحك. ثم لا ينسى أن يضيف أنه لن يأخذ شيئا من ثلاجتي لأنها لا تحوي سوى الماء، وهو يريد مشروبا ممتعا وأنا محروم من المتعة في حياتي، أنا من عشاق تضييع الفرص، من عشاق النكد، وأعتقد أنه يقول عني أيضا أني لا أعرف معنى اللَذَّة.

فأعقب:

- اذهب واشتر مشروبا وأعتقني من حكمك يا رجل.

وضعت قلمي في جيبي استعدادا للانطلاق في جولة تفقد المرضى الصباحية، حين ظهر إشعارٌ على شاشة هاتفي. قرأت مضمونه دون أن أفتح الهاتف:

"23:00: استعد للتسلية والمتعة غدا، لا تنس دعوة شريكك!"

نظرت إلى إشعار التطبيق وابتسمت.

عن أي شريك تتحدث؟ لا أحد يعرف عني هذا. وخطر ببالي لو أن ممرضي العزيز يتعرف على هذا الجانب مني، فأفلتت مني ضحكة، ستكون إحدى صدمات حياته الفريدة. وسيتعين عليه مراجعة كل أحكامه على هذا الجرّاح المتدلية أوداجه جديةً وعبوسا، الجرّاح الذي لا يعرف من طفولته سوى الكتب والأقلام، ولا يتذكر من شبابه سوى الكلية والدراسة والبحوث ثم العمل والمرضى...

يقول إنه لو تركني يوما ما وسط مدينتنا فلن أتعرف درب العودة بمفردي، يقول إني لا أعرف سوى الطريق بين بيتي والمستشفى وعيادتي الخاصة.

أستمتع بحكاياته وخيالاته عن شخصي. صحيح أنها كلها سلبية ولكن طريقة طرحه وتعبيره عنها مضحكة.

أخبرته مرةً أني رأيت كابوسا وكدت أسرد عليه ما رأيت فقاطعني اللبيب قائلا:

- هه دعني أحزر... رأيت فتاة فاتنةً تحاول تقبيلك؟

ثم أطلق ضحكةً حماسيةً لا تنمّ عن تفاهة تعليقه، ولكنني ضحكت لضحكه. وواصلت:

- استمع، يا لك من...

فقاطعني ثانيةً:

- لا لا دعني أقول؛ رأيتنا نحتفل في بيتك؟ هه؟ نرقص؟ وأنت تراقص الدكتورة إياها..

ووقف متمايلا يحاكي في خياله رقصي حينا ورقص الدكتورة وغنجها حينا آخر.

وهنا لم يقاوم أن يضحك أكثر وأكثر حتى أن قهقهاته بدأت تدغدغ صدري وانطلقت معه في ضحكة هستيرية لم نملك التوقف عنها خاصة كلما خطرت ببالي الدكتورة اياها.

في الحقيقة هي زميلة محترمة جدا وملتزمة بعملها وادائها وواجباتها. هي فقط تبالغ في وضع المساحيق على وجهها حتى أني أعتقد أني لن أعرفها إن غسلت وجهها يوما. وأظن أنها ستبدو أصغر سنا إن فعلت ذلك. يقول ممرضي أنها تفعل ذلك محاولةً لفت انتباهي ذلك انني وهي الطبيبان

الوحيدان الأعزبان. ويقول عني وعنها أشياءً كثيرةً ليضحك مني ومنها، خاصةً إن صادف أن نعمل معا.

لأوقف فوضى الضحك، قمت نحو الحمام فغسلت وجهي وحكمت نفسي.

عدت لأجده يمسح دموعه مبتسما ثم قال أخيرا:

- حسنا، حدثني، أنا أستمع جديا... لا أعرف أنك تخاف أصلا حتى ترى كوابيسا!

فأجبته:

- لن تعرف شيئا ، أنت معاقب.

رفع حاجباه مستغربا وانتفض في احتجاجٍ طفولي:

- معاقب؟ لا أصدق! أنا صديقك. وأكبر منك سنا. وتعاقبني؟! إن أصل الحقد الطبقي هو حقدكم أنتم ذوي الشأن والأثرياء علينا نحن الفقراء. ها أنك أنت تستغل مكانتك المهنية وصلاحياتك لتسلط على صديقك الذي يسعى لتسليتك العقاب. ياله من زمن لم يعد فيه للصداقة من معنى...
- لا... لا تندمج في الدور كثيرا، ستتعب للعودة إلى حقيقتك. أي نعم أنت معاقب: أولا لأنك لا تزال تقاطعني رغم أني نبهتك مراتٍ عدة، وثانيا لأنك تسخر من الدكتورة. ألم أقل لك أن هذا تنمر وغيبة؟

اعتدل ولوى قسمات وجهه كأنما يستمع إلى أتفه ما صادفه في يومه هذا:

- أف، معاقب إذا! أنا معاقب. لا تنس أنك ضحكت معي، كنت تهتز كغسالة زوجتي. هه أنت شريكي في الخطيئة إذا.

وغادرني مبتسما ابتسامة النصر. ولكنه عاد فأطل من الباب سائلا:

- أ تخبرني عندما تنتهي عقوبتي؟
- كلا سيد فضولي، فعقوبتك ألّا تعرف.

وغمزته لأني الفائز هذه المرة وأضفت:

- اسمع! أما عن غسالة زوجتك فأنت من اشتراها، وأنت من لم يصلحها حين تعطلت.

فتحت باب مكتبي واتجهت نحو المصعد ذاهبا إلى طابق غرف المرضى، كنت أرد على تحيات الممرضين والعاملين في طريقي. لم أكن أفكر في شيء معين، فقط كانت عيناي تنظران بكل سطحية لما يعترضني وكان دماغي يبحث عما يشغله، فيمر بين المواضيع متصفحا واضعا على كل شيء عبارة "ليس الآن" أو "غير مهم". من حسن حظنا نحن البشر أننا نستطيع الانقطاع عن كل ما يحيط بنا وعن كل حواسنا نحو أفكار وعوالم لا علاقة لها بما يحدث أمامنا. يذكرني هذا بفيلم أو ربما بكتاب. لا أذكر.

أذكر فقط أن كل الناس فقدوا قدرتهم على التفكير في غير ما يرونه أمامهم فعمت الكوارث وانهارت الالتزامات والمعتقدات وصارت أعمالهم نتاج حواسهم واحتياجاتهم الحياتية الحينية.

وصلت إلى إحدى غرف الممرضين وهممت بالطرق على الباب، حين ظهر إشعار على شاشة ساعتي. أخذت أقرأ نصه حين تناهى إلى سمعي اسمي من داخل الغرفة وكانت الجملة كما يلي:

- الدكتور اسكليبيو إنه مَحْظُوظٌ. كل الجراحين يجزمون أن حظه هو سر نجاحاته لا غير، ليس أذكى ولا أمهر ولا أحسن تكوينا أو معرفةً. هو فقط الأوفر حظا!

لست ممن يحسنون مواراة مواقفهم أو معرفتهم بشيء ما. طرقت الباب وفتحته فقلن بتوقيت متفاوت وهن يتبادلن النظرات:

- صباح الخير يا دكتور ...

فأتممت تحيتهم قائلا:

- محظوظ

واصفرت ابتساماتهن إلا من واحدة طالما أعجبت بجرأتها وسرعة بديهتها، إذ انطلقت نحوي كاسرةً جليد الموقف:

- أنا معك يا دكتور، هل نبدأ جولتنا؟ يجب أن أخبرك؛ المريض في الغرفة 109 لا ينفك يسأل عنك ولا يريد رؤية أيّا منا، ولا يصدق كلام أحد فقط يطلب أن تراه أنت.

كنا قد بدأنا السير فعلا فأجبت:

- طيب! من حسن حظي.

واصطنعت الابتسام وقالت:

- حسنا... دعك من كل ما يقال يا دكتور! أنت الأكفأ. صحيح ألا أصدقاء لك هنا ولكن الجميع يحترمك ويكنّ لك كل الاعتبار لرأيك وقراراتك. إذا ما الذي يزيدك إن أحبوك أو أحسنوا بك ظنهم في غيابك؟

فأجبتها فقط لأنهي الحديث:

- أنا لا أهتم... كل ما يهمني ألا تضيعوا وقت المرضى المحتاجين لرعايتكم في الأحاديث الخاوية.
- نعم معك حق. آسفة.

إنها تعرف متى تواجه، ومتى تعترف، ومتى تتأسف.
ليتني أعرف كيف أواجهها أنا أيضا. أقول لها فقط إني معجبٌ بذكائها. ربما ترفع حاجبها وتتجاهلني أو تجيبني بإحدى إجاباتها المفاجئة. ثم تخبر الجميع أن الدكتور اسكلبيو بجلالة قدره يجاملها أو يمدحها أو... يغازلها.

طبعا احتفظت بكلماتي في سري وسكت بعد أن انتهى الحوار. ولكن حوارا آخر كان قد انطلق في رأسي.

الحظ، نعم أنا محظوظ. بل أنا أقبض على حظي بيميني وأسيره كما أشاء. وقد أتخلى عنه أحيانا ثقة في نفسي وقدراتي. ولكني أتعلم من أخطائي ومن نجاحاتي التي تأتي بالحظ. كيف يعرفون عني ذلك ألهذه الدرجة

يراقبونني؟ ربما أظهرت ارتباكي أمام أحد الجراحين. ارتباكٌ لا يلائم النجاح المتمم للعملية.

لا يجب أن ينتبه أحد.

ثم ما مدى جدية ما يتحدثون فيه؟ ماذا لو أنهم يرصدونني حقا! غير معقول هذه تفاهات... وإن يكن! أنا لا أحقق المعجزات، لن ينزل ملك من السماء ليحيي مرضاي، أو ليحدث خارقة. أنا متأكد أنه تعليق متحذلق من حاسد كما يقول ممرضي.

هذه الفكرة تهدئ من روعي، سوف أحفظها.

الهبة

سقط الولد على ظهره بعد أن ألقاه الصبية داخل البيت المهجور. كان من شدة رعبه مغمض العينين. وبعد أن سمع صفْق الباب تكور على نفسه دون أن ينهض أو يفتح عينيه وبقي كذلك وقتا لا يعرف حسابه. كان مرتاعا مما سيراه أو مما يصور له خياله المضطرب أن يراه. أحاطته حيطان المكان ببرودة تسللت إلى أنسجة عظامه. ارتعد فُؤَاده وسرى الرعب في أوصاله كالكهرباء. ولم يجد بدا من فتح عينيه ليرى إن كان هناك حقا ما يبعث فيه هذا الخوف، وإلا مكث كذلك إلى الصباح وقد يسكت الرعب قلبه عن الخفقان فيموت جبنا. تجاسر وبدأ في فتح عينيه ببطء فهاله أن يلقى النور بدل العتمة.

لم يكن نورا ساطعا ولكنه ضوء يميل إلى سنا النار الخافتة. فاتسعت أحداقه في محاولة للإلمام بكل ما يحيط به دفعةً واحدةً.

كانت المدفأة المشتعلة أول ما حط عليه نظره. ثم كنبات عتيقة على يسارها عليها غطاء أحمر اللون كأنما نزعه أحدٌ ما ليقوم من مكانه. ثم سجاد مزركش الألوان يميل أغلبها إلى الترابي. كذلك طاولة خشبية مستديرة منخفضة تتوسط المكان، عليها غطاءٌ قديم الطراز ولكن نظيف. وبعض الصحون الصغيرة تحتوي قطعا من البسكوت والمخبوزات البيتية.

التفت حوله لكنه لم يجد أي أبوابٍ أو مخارج أو حتى أروقة. فقط ستار أَغْبَش أبيض يميل إلى الصفار يغطي معظم الحائط على اليمين، ولوحة زيتية عريضة تتوسط الحائط على اليسار رسم عليها منظر طبيعي كلاسيكي لجبل على سفحه كوخ وبحيرة ونحام وردي.

كل ما بالمكان قد يوحي بالطمأنينة والسكون ولكن عقله الصغير الذي أبى أن يستوعب أو يقبل أن ما يراه واقع أو حقيقة، ألهمه أن يلتفت بحثا عن الباب. ولكن لا أثر للباب خلفه ولا في أي مكان.

عاد إحساس الجزع ليقبض على قلبه واهتزت أوصاله رعشةً، فاندفع نحو الستار عله يجد وراءه شباكا أو منفذا، فرفعه بقوة وطبعا لم يجد سوى الحائط قبالته.

ظل ممسكا بطرف الستار وقد جمدته الصدمة. وهنا سمع صوتا نسائيا مسالما يكلمه من خلفه:

- لا تجزع! سوف تخرج بعد أن تأخذ حاجتك.

ورغم سكينة الصوت، اهتز الولد في مكانه دون أن يلتفت. بل إن جسمه عجز عن الاستجابة لفضوله الذي بلغ تمامه.

فأضافت:

- التفت لأراك!

وكأنما كان بانتظار الإذن... التفت بسرعة ولهفة ليجد امرأةً خمسينيةً عادية الملامح والهيأة. تلبس ما تلبسه النساء عادةً في بيوتهن وتضع وشاحا يدويّ الصنع على كتفيها. تقف وعلى وجهها ابتسامة ودية وهي تشبك كفيها ببعضهما.

هم بالكلام فقاطعته بهدوء:

- لا تسأل كثيرا فيما لا يعنيك ولا ينفعك. فأنا سأعطيك ما يلزمك.

أوشك عقله أن ينفجر من غليان الحيرة والخوف. فما كان منه إلا أن ينطق بـ: إذا؟

وهنا استدارت السيدة وتقدمت بضع خطوات فاسحةً له المجال ليتحرك لكنه لم يتزحزح.

الظاهر أنها ليست صبورة كما يبدو فقالت:

- سأختصر، قادتك أقدارك إليّ حتى أهديك القدرة على قيادة أقدارك.
- آسف سيدتي لم أفهم...

فقاطعته :

- ششش، استمع واحفظ ما سأقوله عن ظهر قلب. خذ هذه الورقة.

ومدت له قصاصة مطوية فالتقطها بحذر و هم فتحها. فأكملت:

- لن تستطيع فتحها الآن ولكنك تستطيع في عيد ميلادك الثامن عشر. وستقرأ فيها ما تخبئه لك الأقدار وفي نفس اليوم تستطيع أن تغير فيها ما تشاء. وسكتت.

كلامها لا يمت للمنطق بصلة. كل المكان بأركانه ومكوناته ووجودها بذاته غير عقلاني. وحتى إحساس الدفء الذي يمس ظهره من نار المدفأة غير معقول. أتراه يحلم؟ متى بدأ هذا الحلم؟ متى نام؟ هل هاجمه الأولاد حقا؟ تشوش فكره واضطرب خط المنطق في عقله. فليكن حلما إذن. سيسايرها حتى ينفذ إلى نهايته ويستيقظ.

قال:

- حقا! ثم؟

قالت:

- فقط.

رغم قراره مجاراتها إلا أنه هنا تبلبل وأراد أن يسأل، يتأكد، هل يصدق؟ هل يغادر؟ هل يشكرها؟ كان يتوقع أحداثا أكثر إثارة وغرابة. وهاهي تقول كلمتين وتسكت. والأدهى أن صورة السيدة أمامه بدأت في الاضمحلال كأنها سراب يتلاشى وكذلك كل ما يحيط بهما من أثاث وزينة، فزاد قلقه واختلط عليه الأمر فأردف بسرعة:

- أشكرك، أنا ممتنٌ...

لم يكن شكره حقيقيّ، كل ما في الأمر أنه طمع في أن تبقى أكثر وتكلمه أكثر.

فأجابت:

- يجب أن تكون... فالامتنان علامة الجدارة وإلا انسحبت منك الهدية. تذكر ذلك.

وهنا اختفت السيدة تماما واختفى كل ما يتعلق بها إلا صوتها الذي أضاف:

- تذكر: للجدارة أداة وعلامة: العمل والامتنان.

بعد ذلك لم يبق حوله سوى الظلام يخدشه بعض النُور الخافت المتسلل من نوافذ ظهرت من لا شيء.

استدار حوله بعد أن اعتادت عيناه العتمة حتى ميز باب الخروج فأسرع نحوه وقد اختلج كل جسمه رعبا ففتحه بسرعة مسببا صوت صرير مفزع وانطلق يركض بسرعة ما عهدها في ساقيه قبل تلك الساعة. لا يبحث عن اتجاه ولا مقصدٍ، فقد انحصر اهتمامه فقط في مغادرة المكان.

ظل يعدو حتى وصل إلى شارع رئيسي مضيء فتوقف ليلتقط بعضا من أنفاسه التي كادت تنقطع، ويهدئ من روعه ثم يستوعب مكانه.

رغم كل ما حدث، لم يكن الوقت متأخرا عندما وصل إلى باب بيته. كأنما توقف الزمن ليفسح له المجال ليعيش حلما كالحقيقة، أو هو العكس... لن يستطيع أن يجزم. فتح الباب ودخل مرتبكا محاولا رسم الهدوء على الأقل

على ملامح وجهه. استقبلته والدته وهي تحمل صينية طعام ساخنة لتضعها على طاولة العشاء. ابتسمت له وهي تحثه على الإسراع بتبديل ثيابه والانضمام إليها للعشاء.

تناول مع أمه العشاء على مضضٍ وهو يجيب على أسئلتها الروتينية التي تحاول بها الاطلاع على أحداث يومه ودراسته وعلاقاته التي تكاد تنعدم. كان يبذل مجهودا جبارا حتى يسايرها بشكل طبيعي، ودماغه يصر على الرجوع إلى المنزل المهجور. حتى أنها انقطعت عن الكلام فجأةً فلم ينتبه إلى ذلك فباغتته بالسؤال:

- ما رأيك؟

اختلج لوهلة وتوقع أنها تسأل كعادتها عن رأيه في العشاء فأجاب:

- طيب، طيب يا أمي، سلمت يداك.

ابتسمت وعقبت:

- لا بأس، أكمل عشاءك وسأملأ لك حوض الاستحمام. سوف تدفأ وترتخي.

كثيرا ما كان يتذمر من إصرارها على أن تساعده في الاغتسال ولكن اليوم استسلم بيد أن رأسه كان مشغولا ولا يأبه لأي أمر كان.

وأخيرا وضعت على كتفيه فوطة الحمام وهي تدلعه بكلمات حب. وهو يضيق بكل ذلك في نفسه أملا أن تعتقه ونفسه بسلام.

كان يتخطى حوض الاستحمام حين زلت قدمه وكاد يسقط وقد قابلت رقبته حافة المغسلة الرخامية فكادت تهشم حنجرته لولا رد فعل أمه التي لاقت صدره بذراعها وقد اصفر وجهها بذات الحين.

- انتبه يا ولدي! ما بك؟
- أنا بخير، زلت قدمي، أنا بخير يا أمي.

نظر إلى وجهها فتفاجأ بكمية الهلع عليه. فابتسم يهدئ من روعها وأضاف:

- أنا بخير يا أمي

تنفست وقالت:

- يجب أن تنتبه يا صغيري، لن ينتبه لك أحد غير وأنا لست معك دائما.
- أمي أنا بخير
- حسنا حسنا، اذهب وإرتد ثيابك.

صمتت لحظةً وهي تراقبه يتجه نحو غرفته ثم قالت:

- ثم ستحدثني بما يشغل بالك.

أبطأ في خطاه وهنا خطر بباله أنها لم تكن تسأل عن رأيه في العشاء، فاستسلم:

- طيب، ولكن ليس اليوم. أحتاج أن أبقى لوحدي بعض الوقت.

قطبت جبينها شفقةً وقالت:

- طبعا! أنا هنا متى أردت أن تحكي.

كانت تعرف ما يواجهه في المعهد من مضايقات من زملائه لكونه فتًى انعزالي ومتميز حد العبقرية. وكثيرا ما تتوجه إلى الإدارة لتشكو وتطلب أن تدرأ عنه الأذية. كل ذلك بدون أن يعلم. ولكن الأولاد الأشقياء يستمتعون بمضايقته ويكرهونه على قدر حب وتقدير معلميه. هي أستاذة جامعية، ورغم أنها تدرس طلابا أكبر سنا وأرصن عقلا إلا أنها ترى وتسمع دائما عن تنمر بعضهم على بعض. هي لا تتوانى أن تتدخل كلما سنحت لها الفرصة لتمنع هذه التصرفات الشاذة. وتأمل دائما ألا يتعرض ولدها لمثلها أو أن يصادف من يحميه على الأقل. ولكنها تعرف أيضا أن طبعه الأبي يمنعه من الشكوى أو الاستنجاد، خاصة وأنه في عمر المراهقة حيث يصر الأولاد على إثبات رجولتهم واستقلالهم. في مواقف مشابهة تفتقد وجود زوجها المتوفي. هي تربط علاقة فريدة مع ولدها ولكنه أحيانا يقاوم ويبتعد، ربما لو كان والده حيا كان يستأنس له فالأولاد يحبون أن يتشبهوا بآباءهم وأن يرافقوهم.

دلف إلى غرفته وانزوى مع قصاصاته المطوية يحاول فتحها. ورغم لينها إلا أنها لم تكن مطواعة حتى يئس فأحكم عليها قبضته وحشر نفسه في سريره ونام. فاستلمته الكوابيس لتعبث به بين ظلمات المنزل المهجور وأصوات أقدام الأولاد خلفه ووجه المرأة يردد نفس الكلمات ولكن بعبوس وعدوانية حتى أنه انخرط في البكاء والاستنجاد. استيقظ وهو يرتعش وجد الورقة بين أصابعه لا تفارقها. نظر إليها مليا ثم جذب نفسا إلى أمعائه ورفع رأسه.

فوجئ بوجه السيدة يحدق فيه منتظرا عودته لليقظة. ولم يع لم هذا الوجه المحاط بالظلمات أمامه الآن. حتى تحول فجأةً إلى وجه الفتى المتنمر وهو يحملق بل هي عيون روح مبهمة تبحث عن جسد مرتع، فانتفض كالمحموم وارتعش قلبه حتى الدماء في عروقه و نطق الوجه:

- خيرا خيرا لا تجزع أنا ماما

وهنا تقبل عقله الصورة وربطها عنوة مع صوت أمه ورائحتها حين انحنت بهدوء لتعانقه وتمسح عن رأسه وظهره آثار الهلوسة فتبخر بوجودها ولمستها كل الكابوس كأن لم يكن.

السعيد التعس

كنت منغمسا أدون ملاحظاتي في ملف أحد المرضى حين طرق أحدهم بابي وفتحه دون انتظار الرد. كان أحد الممرضين وأخبرني بسرعة وإيجاز أن زميلي الجراح نجيب والذي يباشر عملية جراحيةً الآن يطلب انضمامي إليه في الحال.

نادرا ما يحدث هذا ولكنه يحدث، فالجميع هنا يعتبرني مرجعا. أو أيقونة حظٍ! تركت ما بيدي واتجهت أستعجل الخطى نحو غرفة العمليات المقصودة. ساعدتني ممرضات في نشاطٍ لأتحضر للدخول إليه وها أنا ذا.

بادر الدكتور نجيب يشرح لي وضع المريض المسجى بيننا بوضوح واختصار وقد علا الاضطراب محياه. سحبت نفسا عميقا محاولا بسط الحلول منظمةً أمامي وانطلقت أسعف المريض وزميلي المرتبك. كنت أملي عليه ما يفعله معي واشحن عزيمته ببعض التعليقات التي تحسن صورته أمام نفسه، من قبيل:

- لقد قمت بكل العمل على أحسن ما يرام أو الظاهر أنك لست على ما يرام اليوم فقد رأيتك تقوم بنفس العملية الجراحية سابقا بكل سلاسة.

تم التدخل الجراحي بكل نجاح. أعرف أنه مضطر وأنه ربما نادم كل الندم على استدعائي. أعرف أنه ككل جراح غيره يكره أن يرتبك أو يقف عاجزا أمام اختباراتنا اليومية. أعرف أنه لعنني ولعن هذا الصباح وهذا اليوم ويوم عرفني فيه. أعرف أنه يحمل جميلي على أنه مذلة إلى يوم الدين. لكني لا أقصد ذلك فهو بدون اعتداد واجبي وقسمي الذي أعيش وأعمل من أجله؛ إنقاذ حياة الآخرين. وأتمنى أن يشكر ربه لأنه وجد الدعم والإغاثة في وقت قياسي. حسنا هو حر. لن يغير ذلك مني شيئا ولا في أيامي أو أحاسيسي أو تصرفاتي معه. فليتخذ الموقف الذي يبتغيه. كأن ما يفكرون به أو يتحدثون فيه يغير من أقداري شيئا. أنا كتبت أقداري بيدي.

نزعت رداء غرفة العمليات وغسلت يداي وعدت لمكتبي لاستقبال مواعيدي الموالية. ولكن عباس، ممرضي الفضولي، لم يترك للسلام مكانا. فقد وجدته أمام مكتبي في انتظاري وفي جعبته ملايين الأسئلة وهو أكيد أن اقتلاع الإجابات مني ليس بالأمر الهين أبدا ولكن أمله لا ينطفئ.

وكأنني لا أعرف شيئا قلت:

- جيد أنك هنا، ساعد الممرضة فالمرضى كثيرون اليوم وقد تأخرنا في أخذ المواعيد.

رفع حاجبيه وابتسم:

- طبعا جلالتك. فقط قلي...

- لن أقول شيئا، دعك من ترهات بسطاء العقل وقم بعملك. أنا أوجهك لسديد الرأي والتصرف.

رسم ملامح الخيبة على وجهه. ودون أن يفقد ذرة من أمله أضاف:

- حسنا هل ستحكي لي ما حدث بعد العمل؟

التفت إليه محدقا في وجهه لأقول:

- ما شأنك بما يحدث؟ ألا ترى أنك تتجاوز حدودك إلى ما لا نهاية؟ ولا تتوانى أيضا عن التشكيك في طبيب جراح ممتاز كالدكتور نجيب! ألهذه الدرجة قد فرغ رأسك من مشاكلك في حياتك واهتماماتك الشخصية؟ أليس الأحرى بك أن أن تفكر في زوجك وأطفالك واحتياجاتهم وتربيتهم حتى لا يبلغوا الشباب وهم أغرة سذجٌ كأبيهم؟

طبعا لم أقل أي كلمة من كل هذا فقد واجهتني طلعته الودودة وابتسامته المحتالة فأجبت:

- إن تبقى لنا وقت سنتحدث.

وهنا انحنى في حركة مسرحية متملقة:

- أمر جلالتك!

وانطلق يستعرض عضلاته أمام الممرضة، على أساس أنه ليس ممرضا عاديا بل هو صاحبي وأنا طلبت عونه، ثم أمام المرضى ينظمهم ويسأل هذا عن أعراضه وينصح آخر ويطمئن ذاك. مر اليوم على أحسن ما يرام. وممرضي كالطفل الذي ينتظر عودة أمه التي وعدته بالحلوى، لا يتوانى في كل دخول إلى مكتبي أن يذكرني بوعدي:

- لا تنس يا دكتور، نحن متفقان يا دكتور، لم يبق سوى أربعة مرضى يا دكتور... ثلاثة، اثنان... هذا المريض الأخير يا دكتور...

لا أنكر أنه يقتلع ابتساماتي في كل مرة عن طيب خاطر. وطبعا ما إن غادر آخر مريض حتى تسمر أمامي على الكرسي وعيناه تتقدان تطفلا وفضولا وقال:

- ماذا حدث؟ أحقا عجز عن إنقاذ مريضه؟ أحقا استدعاك لنجدته؟ أتعلم أنه غادر المستشفى مباشرة ولم ينتظر حتى يستفيق المريض! لقد كلف بذلك الدكتور فادي. إنه غاضبٌ جدا. وهذا أقل ما يقال أو يوصف به. هل صغرته؟ آسف هل أبنت له تفوقك عليه ومكانته أمام مهارتك وخبرتك؟ هيا أخبرني.
- اسمع...
- نعم أنا أستمع طبعا. أنا هنا لأستمع.
- الدكتور نجيب جراح ماهر ذكي ومتمرس...

وهنا قاطعني متأففا:

- لا لا لا... حقا لا أريد هذا الخطاب، أنا أعرفه، ولم أصبر وأنتظر طيلة اليوم لأسمعه. أتريد أن أتلوه عليك؟ أعرفه... أنا حقا أعرفه.
- ماذا تريد؟
- الحقيقة... أرجوك الحقيقة كما هي.
- لمَ تضفي كل هذه الهالة على حكايات بسيطة؟ أستطيع شخصيا أن أرتبك في يوم متعب وأعجز عن مواصلة عملي خاصةً أن مريضا مخدرا مفتوح الصدر مسجى أمامي فأطلب المساعدة ممن أثق بهم.
- لكنك لم تفعل ذلك يوما. أمّا هم فقد فعلوا. دعنا من الباقين، نحن نتحدث عما حصل اليوم. لم غادر بكل هذا الحنق؟
- دراسة الطب والجراحة يا صديقي ليست بالأمر الهين. فهي تستهلك سنوات حياتك وطاقة شبابك وصغرك الذي يقضيه أترابك في السهر والمتعة. هو علم لا ينفك يتطور فيقوّض أساسياتٍ ونظريات ودراساتٍ ليبني أخرى. مهنة تستهلك عقلك وتتحداك يوميا ألا تعجز أمام الأجساد الواهية المتألمة التي تطلب عونك. دراسة الجراحة تستنزف حياتك وأعصابك. فإذا ارتبكت أو ترددت أو أخطأت، فالثمن ليس مالا ولا وقتا ولا توبيخ رئيسك في العمل. الثمن حياة شخص أعطاك كل ثقته ليعيش أو يشفى. عائلة تنتظر منك أن تعيد الصحة لأب أو أم أو طفل أو زوجة..

الثمن تأنيب ضميرك لشهور وربما سنوات. نحن نتظاهر ولكننا لا نتساهم. أتفهم الآن موقفه؟

أجاب:

- كيف تعرف ذلك؟ لم يمت بين يديك مريض من قبل.
- أتصوره، أحلم به، أخشاه. أنا أعيش هذا الكابوس مع كل عملية جراحية مستعصية.
- أففف، ليتني لم أنتظرك طيلة يوم كامل. خفف الله عنكم يا دكتور. لا أصدق أني أقول هذا. تصبح على خير يا دكتور، انتهى وقت الدوام، ألقاك غدا، وآمل أن تصبح أخف روحا. آمين...

ضحكت في سخرية معقبا على كلامه:

- آمين.

غادر وهو ينزع رداءه. ولكنه عاد بعد دقيقة واحدة مبتسما. هيأته لا تنبئ بخير. أعرفه جيدا، سيقوض هدوئي بطلب مفاجئ، و هو متأكد من رفضي. ترددت بدوري أن أسأله وحدجته بنظرة استفهام، فقال:

- دكتور.. ألست صديقك؟

مقدمة متملقة مريعة. ضاقت عيناي في محاولة تكهن طلبه، فواصل:

- أجل أنا صديقك، ولن ترفض لي طلبا بسيطا.
- ماذا تريد؟

- غدا هو عيد ميلاد لولو، وقد أصرت زوجتي أن نقيم حفلة وندعو أصدقاءنا كما فعلنا لأخيه في هذا السن. أنا لم أدع أحدا من المستشفى، فأنت تعرف التعاليق والأحاديث في الأروقة هنا وهناك. ثم لن أدعو جلاس المقهى محسن وجابر، لن يشرفني أي منهما أمامها... بينما أنت الدكتور إسكلبيو! سيكون لي الشرف الكبير لو قبلت دعوتي. سأكبر في عينها وفي عيون أهلها. هل ستفعل؟

قال كلماته الأخيرة بمنتهى الصدق. أو هو أقنعني بذلك بأساليبه. لم يدعني أحد في حياتي إلى عيد ميلاده أو عيد ميلاد طفله! أصلا إن آخر عهدي بهذه الحفلات ما كانت ترتبه أمي من أجلي في صغري، ونادرا ما كانت تدعو أحدا من أهلنا. ثم أنا لا أعرف أحدا هناك غيره، سيكون الأمر في غاية الإحراج. عبس وجهي رغما عني ولم أجد مهربا غير الحقيقة:

- عباس، أنت تعرف أني لا أحب هذه الحفلات وكثرة الناس وأتحرج من أشخاص لا أعرفهم.

رسم على وجهه المسكنة وخيبة الأمل. سكت هنيهة ثم قال في توسل:

- لن أكذب عليك، سيكون هناك الكثير من الحضور، ولن يتركوك بسلام أعرف. لكنه معروف لأجلي لن أنساه أبدا ما حييت. هيا، أمسية واحدة وتمر. ولن يبقى سوى ذكرى أخذك بخاطري.
- أنا حقا آسف.

ارتخى كتفاه في يأس والتفت ليخرج، ثم أضاف في أمل:

- على كل حال دعوتي ستبقى قائمة. فكر، ربما تغير رأيك.

لم تفارق سحنته الحزينة ذاكرتي، وقد هيج ذلك إحساسا بالذنب داخلي. ولكني حقا لا أستطيع. كنت أريد العمل إلى وقت متأخر على بحث قد بدأته منذ أسابيع، ولكنه أخمد رغبتي في ذلك. التقطت مفاتيح سيارتي وغادرت. يا له من وغد مسالم.

في طريقي إلى شقتي لاحظت محلا لبيع لعب الأطفال. ومن الغريب أني لم أره سابقا في حياتي. تعطلت حركة سير المرور وقد تصدر مجالي البصري. كل هذه الأضواء والألوان والديكور والزينة... يا للاستفزاز. كم أحسست بالوضاعة وقلة المعروف.

ركنت السيارة ونزلت. ثم يتحدثون عن حظي...!! إن حظه يفتت روتين حياتي.

أدهشني حقا عدد وتنوع الألعاب والهدايا داخل المحل. أهي تجارة مربحة حقا؟! كأنني نزلت من كوكب آخر. لاحظَت البائعة دهشتي وحيرتي، فاقتربت مني وألقت التحية بكل أدب وعرضت مساعدتي. لم أجد بدا من الموافقة. طلبت منها هدية عيد ميلاد. فسألتني عن جنس الطفل وعمره وميزانيتي. أخبرتها أنه ولد يبلغ سنتين، وقُلت بثقة:

- أريد هدية مميزة ومجزية. لا أريد أن يأتي أحد للحفل بمثلها.

أومأت السيدة برأسها تقديرا، واتجهت مباشرة نحو علبة كبيرة عليها صورة ولد أشقر يركب سيارة رباعية الدفع صغيرة. فسألت:

- أحقا في داخلها سيارة؟

نعم يا سيدي، تعمل بالبطارية. يحبها الأطفال كثيرا، ولكنها غالية الثمن، لا يشتريها إلا الأثرياء. ما رأيك؟

- طبعا موافق، لكن هل هي ثقيلة؟

نظرت إلى سواعدي الكبيرة تلفها بنظرة أحرجتني، ثم افترت عن ابتسامة زالت معها كل البراءة والأدب اللذين استقبلتني بهما وعقبت:

- قد تثقل علي أنا، ولكن ليس على عضلاتك... هل هي لطفلك؟

أجبت بكل تلقائية:

- لا بل طفل صديق لي.
- رائع، يبدو صديقا مقربا. ربما لو اصطحبت زوجتك كانت ستساعدك في اختيار الهدية. خاصة أن الزوجات لا يقبلن التبذير في الهدايا.

كنت أراقبها وهي تلصق ربطات ملونة على صندوق اللعبة وأجيب:

- لست متزوجا.

وهنا وقفت والتفتت نحوي بهدوء وقد ارتفع حاجباها وارتخى جفناها بشكل غيّر ملامح وجهها كليا، ففهمت أخيرا فداحة استرسالي في الإجابة على أسئلتها. ولكني لم أتصور لحظة ما ستكون خطوتها التالية. تقدمَت نحوي قليلا حتى بدا أنها ستلامس صدري فتراجعتُ، فمالت برشاقة لتتجاوزني نحو منضدة الاستقبال. مر شعرها الهائج أمام وجهي وتركني أتخبط حائرا في طيب عطرها الشرقي الحار، ونادتني قائلة:

- تفضل يا سيدي، الاستخلاص هنا. سوف يقوم الصبي بنقل الصندوق إلى سيارتك.

تبعتها وقد ارتبكت من جرأتها، تناولت محفظتي متحاشيا النظر في عينيها التي بدأت تراقب حركاتي بكل ثقة وهدوء، قلت:

- كم ثمنها؟

مدت كفها بورقة صغيرة كانت ملصقة على الصندوق وقد كُتب عليها الثمن. لم أهتم لحظة بالمقابل الباهظ، كل ما كان يهمني هو الخروج من هذا المأزق. التقطت بطاقتي ومددتها إليها. كانت تُتم عملية الاستخلاص وهي ترمقني بنظرات متقطعة جريئة، ثم قالت:

- هل أعرفك؟ تبدو لي مألوفا.
- ربما... لو أنك تلجئين إلى مستشفى المدينة أحيانا.
- امم... أنت طبيب إذن؟
- أجل

أعادت لي البطاقة مبتسمة، وأشارت إلى الصبي أن يتبعني بالصندوق، وقبل أن أغادر، مدت لي يدها بكارت. أصابع بيضاء كالمرمر، ذات أظافر طويلة زهرية وملمس ناعم، ثم أضافت:

- سرني أن تكون من زبائننا يا دكتور...
- إسكليبيو
- إسكليبو! اسمك مميز. زرنا ثانية متى شئت. لا داعي أن تشتري طبعا، أظن أننا نستطيع أن نكون أصدقاء.

وعلّمت قولها بنغمة رصينة متمهلة كأنها تتأكد أني سمعت وفهمت كل كلمة، ثم ابتسمت. مدهش كيف اختلفت ملامحها وابتسامتها عما رأيت حين دخلت!

- شكرا، شكرا لدعوتك. تصبحين على خير.

فررت بجلدي. ليس لعيب فيها. هي جميلة جذابة ومتكاملة، ورائحتها خلابة بل ساحرة. أما أنا فلا أعرف كيف أتصرف مع النساء.. خاصة الجريئات منهن. وقد عهدت في نفسي هذا الطبع. إذ أنها لم تكن المرة الأولى التي توحي لي إحداهن بإعجابها بي طمعا في مواعدتي، أو حتى تبادل بعض الحديث معي. ولكنني كنت أتجمد غالبا، فيتغابى عقلي، وتتصلب الأفكار والكلمات في حلقي، ثم أهرب جبنا أن يخيب ظنها فيّ، إذ تكتشف أني أحمق مع النساء. ولكن أغرب النساء اللواتي اعترضنني، امرأة ناعمة ولطيفة، ادعت المرض حتى تزورني في عيادتي الخاصة. بعد أن

كشفت عليها وطرحت بضعة أسئلة، بدا لي جليا أنها لا تعاني أية علة، حتى أنها لا تجيد التظاهر ولا الكذب. وددت لو أسألها جهرا لمَ جاءت إلي؟ ولكنني لم أجرؤ. بل إنني تجاوزت ذلك إذ أخبرتها أنها مجهدة وكل ما تحس به من أعراض هي مخلفات توتر وإجهاد. كتبت لها بعض الفيتامينات، ثم قطعت زيارتها بكل حزم، أن تمنيت لها الشفاء. أعتقد أني لو تركت لها بعض المجال، كانت ستبوح لي بسبب مجيئها الحقيقي. أعرف أنها تحرجت وغادرت بمكنون نفسها ولم تعد.

في الغد، اتصلت بعباس ليعطيني عنوان بيته. كان منتشيا بقبولي دعوته، فأخبرته أني لن أتأخر في الحفل مهما كانت الأسباب. عندما دخلت، التفتت نحوي كل الوجوه، خاصة مع الصندوق الضخم الذي أحمله. سلمت على زوجته بحرارة وبعض أهله أو أهلها ممن كانوا يعرفون بأمر مجيئي. جلست في ركن أستطيع منه مراقبة المكان دون أن ينتبه لي أحد. كل شيء كان عاديا؛ الأطفال، الحضور، الزينة، الأثاث... إلا شيء واحد... ممرضي.

لم يكن نفس الرجل الذي أعرفه، ربما يشبهه قليلا؟ كلا البتة. كان شديد الاهتمام بطفليه وزوجته. يتابعهما أينما تحركا، خاصة الصغير منهما، كان يحيط به من كل جانب خشية أن يقع أو يصيبه ضرر. لم يكن رغم ذلك يغفل عن زوجته، كلما التفتت وهي تتحدث إلى إحدى ضيفاتها حتى يبادر بسؤالها عما تبحث أو ما تحتاج، فإذا طلبت شيئا حمل ولده على كتفيه

وأسرع يلبي طلبها. ثم لا يتحرج أن يجلس قربها ويعانقها وأحيانا يقبل رأسها! عندما طلبت منه، أحضر تورتة عيد الميلاد وبدأ في دعوة الجميع بكل لطافة ودعابة إلى الطاولة، وقد خصني بمكان إلى جانبه ولكنني تراجعت نحو مكان أستمتع فيه بمشاهدة هذا الصديق الغريب عني. كان يقف إلى جانبها وقد وضع يده على كتفها وحمل طفله الصغير بيده الأخرى، بينما وقف طفلهما الأكبر بينهما يغني أغنية الميلاد. وغنى الجميع وغنيت معهم. تطلع إلي آنذاك ووضع كفه على رأسه بمعنى جميلك على رأسي، فابتسمت له. ثم قدم شكره للجميع لتلبية دعوتهما منمقا كلماته بعبارات مختارة. أثناء حديثه كانت الزوجة تراقبه بحب ورضًا. وما إن أتم كلامه حتى عانقته بذراع واحدة وقبلت كتفه.

لم أشعر بمرور الوقت، ولا ضايقني وجودي بالمكان. وحانت مني نظرة إلى ساعتي فوجدت أنها العاشرة! فقررت المغادرة على مضض. حاول استبقائي حتى نفتح الهدايا ولكنني اعتذرت، ألقيت السلام على الجميع فأجابوني كأني فرد من العائلة، وذهبت.

في الطريق لم أمسك نفسي من مراجعة أحداث الحفل: تصرفات عباس الغريبة عني. لاشيء يمنع من أن يكون أبا مهتما أو زوجا محبا. ولكن لأمر ما قد صور لي خيالي أنه رجل غير مسؤول وسطحي. ربما لأني عهدته كذلك في المستشفى. هذا لا يمنع أني استمتعت للغاية باستكشاف هذا الوجه فيه ومراقبة تصرفاته المهذبة والحنونة تجاه زوجته وأطفاله.

وصلت الى شقتي. كنت جائعا ولكني كنت متحمسا أكثر لموعد المساء فأسرعت بفتح التلفاز ووضعت يوتيوب، بحثت عن القناة المفضلة لدي حتى لا أضيع لقطة واحدة قبل الحادية عشرة. تبقى عشر دقائق... أسرعت بتبديل ثيابي وصنعت سندويتشا بسيطا من خبز وجبنة والتهمته على عجل. وعدت قفزا إلى غرفة الجلوس حيث أبعدت الطاولة إلى ركن قصي حتى أفسح كل المجال لنفسى وهنا بدأ العرض. وبدأت معه تحليقي في أحلام اليقظة.

العرض هو عبارة عن راقصين: كارلا وديبيغو يعلمان رقص الصالونات، خاصة التانغو والبوليرو وأنا أعشق هذا الأخير. والليلة سيكون درسي الخامس في هذه الرقصة البديعة لقد حفظت كل الحركات السابقة وتسلسلها عن ظهر قلب ويستطيع جسمي القيام بها دون وعي. أنا أرقص فى بيتي في المطبخ والصالون، أرقص مع فتاتي الرشيقة سريعة الحركات والبديهة، تسايرني في كل الحركات بكل انسيابية وجمال. صحيح أني لا أعرفها في حياتي اليومية لكن رسمها في مخيلتي ثابت وواضح ومألوف.

ليست ذات جمال خرافي ولكن لها جمال هادئ ومريح يطمئن قلبي. أحيانا أشتاقها بإلحاح، فأبحث عنها على صفحات الانترنات والمجلات وأصر على ذلك. مستحيل ألا يكون لها شبيه، بل مستحيل ألا تكون موجودة بالفعل. يقول لي عقلي إن ما أتصوره هو خيال يصنعه فراغ حياتي من النساء

ويقول لي خيالي المريض: بل ما تحس به واقع وستلقاها. إن قوة إحساسك ورغبتك فيها ستجذبها إليك يوما ما.

واصلت الرقص مع فتاتي رقيقة الوجه والروح حتى بلغت بنا النشوة ذروتها، فارتميت على الأريكة متعبا وأغمضت عيناي محاولا البقاء أكثر داخل حلمي. وهكذا اندمج حلمي في منامي ولم أع إلا وصوت منبه الهاتف يعلن حلول الصباح. عادةً ما أستيقظ في حالة حسنة مستعدا لكامل اليوم. وبعد ليلة راقصة، استيقظ منشرحا سعيد كأنما عشتها حقا. ولكن هذا الصباح. أبت نفسي إلا غما وحزنا! بل هو شجن وكرب يلفان صدري ويسُدّان حلقي بغُصّة تكاد تنفجر.

جلست لبضع دقائق على حافة الكنبة أنظر إلى خارج النافذة وأستمع إلى أصوات الحياة التي انطلقت في الشارع والبيوت المجاورة فانفجر الدمع من عيناي غزيرا وانطلقت في بكاء شديد ثم نشيج وشهيق. وظللت كذلك زمنا حتى تعبت وأفرغت كل الحزن والألم الذي كانا يضيقان نفسي. فارتخت عضلاتي وانسكبت أطرافي نحو الأسفل ووهنت جفوني وأحسست بعجز شديد.

لم أتحامل على نفسي ولم أحاول الخروج مما أنا فيه بل استسلمت لكآبتي وعدت للاستلقاء دون أن أغمض عينيّ بل بقيت أحدق في السقف الخالي على خلاف رأسي الذي يكتظ بالأفكار والتساؤلات والندم . إلى متى سأمكث وحيدا أأخشى الرفقة إلى هذا الحد؟ أنا الآن واضح أمام نفسي...

أنا أخشى الرفقة. أخشى أن يكتشف أحد سري. أن يلومني أحد على اختياراتي. لست على يقين من صحة ما فعلت. ألم يكن من الأفضل لو سلكت طريقا أخر لا مجازفة فيه؟ أليس من الأنانية أن أضمن لنفسي النجاح وأخاطر بأرواح الناس وصحتهم؟ أنا أناني.

كنت صغيرا. واليوم أنا أعرف أني أناني. الوقت متأخر لأغير ما أنا فيه. ما الذي سأغير؟ مهنتي؟ وماذا سأفعل، أدرس طلابا؟ ومن قال أنني لن أخرج إلى العالم أشباها لي من الفاشلين؟ أكون واحدا وأصير عشرات ومئات هه ! ثم ماذا؟ أبحث عن حبيبتي؟ هذا الأمر أصعب من الأول.

لم أكن في حياتي من الشبان الموهوبين مع الفتيات. وحتى لو حاولت، الزمن اليوم غير البارحة قد تضحك منى الفتيات أو تحتقرنني. قد يسخرن منى أو يتحدثن عنى. ثم كيف سأختارها؟ ما أدراني أنها المناسبة فإن لم تكن كذلك كيف سأخبرها ؟ ماذا لو آذيتها ؟ ماذا لو آذتني؟ أسمع أخبارًا من هنا وهناك عن فشل العلاقات وتحولها إلى خلافات أو كره وأذية. لن أتحمل مرافقة امرأة لا أرتاح معها أو تتخذني الحل لمشاكلها السابقة. هي قد تقبلني لأني جراح أو متيسر. قد تقبلني فقط لتتزوج وتنجب أطفالا... قد تتزوجني لأني هادئ وغير متسلط...

يا لهذا الصباح... ما ليومي قد بدأ هكذا ؟ ذهبت كل سعادتي ونشوتي سدى ، كما أني سأتأخر عن عملي.

قررت أن أنهض وأبدأ يومي وأعود إلى واقعي فورا. وهذا ما حدث تماما. ففي خلال ساعة بالتمام كنت في مكتبي أتهيأ لجولة مراقبة مرضاي الصباحية، ولكن الظاهر أن يومي هذا لم يكتف بعد...

تلقيت إعلاما بوصول حالة طارئة عقب التعرض إلى حادث خطير. قيل لي وأنا في طريقي نحو قسم الطوارئ أن الرجل مكث ساعات مغمى عليه في الطريق حتى بلغ الصباح فتفطن إليه الناس وهو في حالة حرجة.

أسرعت الخطى لأجد الطبيب المسعف وبعض الممرضين يحيطون بالرجل الذي يتأوه ويستنجد في ألم. قد تلطخت ثيابه الممزقة بالدماء كاشفة عن جروح عميقة في صدره ورقبته وفتحة عميقة في رأسه التي يحاول الممرض الضغط عليها بضمادة طبية كبيرة.

استبشر الطبيب لرؤيتي وأخبرني في سرعة عن حاجة المصاب لعملية جراحية عاجلة. انهمكت في فحص المصاب وقد ابتعد كل من استطاع مفسحا للجراح الموهوب المكان، وعم السكون.

ما لفت انتباهي لم يكن ذلك تماما، بل لجوء المصاب نفسه إلى السكون. كانت تفوح منه رائحة الخمر والدماء. وانتبهت إلى أنه يحدق في وجهي وقد اتسعت حدقتاه كمن يرى للتو ملك الموت. كان وجهه مألوفا للغاية ولكن ملامح الفزع والألم والدماء التي تغطي حبينه وتسترسل حتى لحيته

ورقبته، قد شوشت ذكرياتي فلم أتمكن من تحديد هويته، فهمس حتى لم يسمع غيرنا كلماته:

- اسكليبيو!

ثم استهل:

- أرجوك أنقذني... لا تكن مثلي!

الرجل يعرفني أيضا، أردت أن أسأله من يكون ولم يتوسل أن أنقذه ولكن لا الوقت ولا المكان يسمحان. طلبت منه أن يهدأ وأن يخبرني إن استطاع بما حدث وأين يشعر بالألم - ونحن في طريقنا لتصويره بالأشعة قبل الدخول إلى قاعة العمليات- طلبت منه أيضًا ذكرُ جميع الأدوية التي يأخذها حاليًا.

تم توصيل المصاب بأجهزة مراقبة وتتبُع. أضيئت المصابيح الجِراحيّة وشاشة عرض العلامات الحيوية. بدأ القسطر المرتبط بآلة شفط بإزالة الدَّم الزائد والسوائل الأخرى، والتي يمكن أن تمنع الجَرّاحين من رؤية الأنسجة بوضوح.

كان الرجل مسبولا أمامي وقد تسرب المخدر بمفعوله في جسده وعقله، لا يفصله عن مفارقة هذه الدنيا سوى قدره وعلمنا.

حاولنا طيلة ثلاث ساعات، تكاتفنا وتآزرنا. لكن روحه أبت إلا أن تغادر هذا الجسد المهتك الذي سبق أن أعيته الحياة لتكتسحه بالقاضية هذا اليوم...تحت يدي.

هذا اليوم شهدت تحقق أكبر كوابيسي. وكيف؟ بموت الرجل الذي طالما كان كابوسا في طفولتي. هذا الرجل تعقبني يوما ما حين كنا مراهقين ومعه زمرة من أولاد يشبهونه في حب التنمر ومضايقة الآخرين. وتكاتفوا ليلقوا بي داخل منزل مهجور ويهربوا.

رغم أني تعرفت عليه منذ استسلم للتخدير، ورغم صدمتي من ملاقاتي إياه بعد كل هذه السنين وفي هذا الموقف بالذات إلا أن الأكيد أني مسحت كل أفكاري وقمت بعملي على أكمل وجه. أو ربما لا؟ لم أعد أعرف!

كنت أراقب الممرضة المساعدة وهي تغطي وجهه كأنما تلف على فؤادي لحافا من بؤس وألم. خرجت من غرفة العمليات قابلا لقبول التعازي بدلا من أهل المصاب. اليوم قوضت كل الاعتقادات والأساطير التي تحكي عني. تميمة الحظ لم تعد تعمل...

التاريخ يعود

رن جرس المدرسة مسترسلا معلنا بداية الحصة الصباحية الأولى. في مدخل قاعة الدرس التقى الفتى بغريمه متبوعا بفريقه وهم يتدافعون ويتضاحكون. لكن اللقاء أَخْمَدَ كل الهرج مرة واحدة. وهم يراقبون الولد يصوّب نظراته إليه في تحدٍ غامض. لم يعتادوا منه هذه المواجهة رغم أنه لم يكن أبدا جبانا. ولكنه عودهم بالتجاهل مما استفزهم أكثر وحرضهم على مضايقته باستمرارٍ. لم يفهم أي منهم مقصده أو مراده. قد يكون اشتكى فعلتهم إلى أهله أو إدارة المعهد أو حتى إلى أهاليهم، أو ربما نوى أن يرجع الصاع صاعين. فهمس أحدهم إلى أصدقائه:

- ماله كالملبوس ينظر إليه هكذا. هل ترى سكنه عفريت؟

سرت كلماته كالتيار البارد في أوصالهم. وحسم صوت المدرس الموقف إذ نادى يستعجل الطلاب لاتخاذ أماكنهم. طيلة اليوم لاحظ الجميع لجوء المجموعة المعروفة بالشغب إلى الهدوء والسكون وخاصة تحاشيهم للفتى الذي اعتاد أن يكون هدفهم المفضل. والظاهر أن هذا كان كفايةً له إذ لم يلتفت إليهم وعاد إلى تجاهلهم ولكنه لم يتوان عن إغاظتهم بوضوح. إذ عمد إلى الجلوس في أماكنهم التي اعتادوا عليها في الفصول وفي قاعة الأكل وحتى في الساحة. فوجئوا بتصرفه هذا وكأنه يتحداهم أن يتصدوا

له أو كأنه يستفزهم ليعودوا إلى سابق عهدهم. ورغم ملاحظة بقية الطلاب لتصرفاته "المتهورة" وتحدثهم في الخفاء عن ذلك، ومحاولتهم فهم خوف الشياطين الصغار من هذا الفتى الهادئ. إلا أنهم لم يجسروا على الاقتراب منه، ففعله هذا أكد لهم أن أمرا خفيا يقويه ضدهم. وقد لعبت خيالاتهم عظيم الدور في تصوير أمور مفزعةٍ حدثت لهذا الفتى في المنزل المهجور وقلبت كيانه حتى يتحول إلى وحش آدمي.

في هذا اليوم عاد إلى بيته مثلج الفؤاد مبتهجا. وكعادته لقي والدته في استقباله مبتسمة. بادرت بمعانقته وتقبيله وقالت:

- عيد ميلاد سعيد حبيبي. الليلة ستكون لنا معا، لقد حضرت سهرة وطعاما وحلويات.

سكتت لحظة وهي تراقب الابتسامة على وجهه ثم أردفت:

- وسنلعب الشطرنج...

وكأنها ألقت عليه نكتة ظريفة، إذ انطلقت من صميم قلبه ضحكة عالية ورفع قبضتيه للأعلى صائحا:

- نعم هذا هو! والفائز؟

فأجابته على الفور:

- كالعادة، سيطلب ما يشاء

عانقها بشدة وقد اشتد حماسه وأردف:

- لحظات وأجهز.

وانطلق نحو غرفته كالسهم.

....

كانا يجلسان على السجاد وقد وضعا رقعة الشطرنج بينهما يتنافسان، وعلى يمينها صحون صغيرة من فواكه وقطع حلوى وكأسي عصير.

- كش ملك

قالها وتَبَسَّمَ ملء وجهه ووضع كفيه متشابكين خلف رأسه و اتكأ على وسادة كبيرة خلفه. ثم وضع ساقا فوق أخرى وأضاف:

- الآن حدثيني...

كانت تعرف مسبقا ما سيطلب. مخططها يسير على ما يرام. قالت:

- بم أحدثك؟

قال:

- عن أبي، أريد أن أعرف كل شيء. كيف عرفته؟ كيف تزوجتما؟ كيف مات؟

جذبت نفسا عميقا وتربعت وبدأت:

- كنت أشرب العصير مع زميلتي في السكن في مقهى بسيط في الميناء حين بدأ بعض البحارة بإنزال صناديق السمك إلى المرفأ وسرعان ما تجمع الناس حولهم للشراء. أسعدني رؤية ذلك وجررت صديقتي لننضم إلى جموع المتهافتين على صناديق السمك الطازج.

كنا نحاول أن نجد مكانا بين المتدافعين ولم نكد نصل إلا وقد فرغت جل الصناديق ولم يتبق سوى القليل. أحبطني ذلك وأنا التي كنت أمني نفسي بوليمة من مشويات البحر تلك الليلة وطلبت من صديقتي أن نغادر حين سمعت أحدهم ينادي:

- انتظري... ألن تشتري؟

التفت فإذا هو أحد البحارة ينظر إلي ويوجه كلامه لي. كان يرتدي ثيابهم الزرقاء، ويطوي أسفل سرواله المبتل، ويقف حافي القدمين، فقلت:

- لم يتبق شيء

قال: بلى هاهو، و أشار إلى صندوق بين يديه وثلاث صناديق أخرى إلى جانبه.

قلت:

- أعتقد أنه نصيبك.
- نعم لا بأس أن تأخذي منه ما تريدين.

- لا شكرا، هذا كرم منك.

ابتسمت له مجاملةً وتأبطت ذراع صديقتي وهممت بالذهاب، فقال:

- غدا تجتمع عائلتي لنقضي اليوم معا ونأكل السمك، هل تأتين؟

وضع الصندوق أرضا وأشار إلى المنازل المتراصة أمام الميناء مضيفا:

- انظري، هذا بيتنا، سأكون سعيدا إن جئت. أنا أطبخ السمك لعائلتي كلما عدنا من رحلات الصيد. ولا أحد يرفض دعوتي لأن لا أحد يحضر سمكا مثلي.

قلت:

- أشكرك، لا أستطيع قبول الدعوة.

التفتَ إلى صديقتي وقال:

- أنت أيضا مدعوة. لا تخافا لست سفاحا ولن أتعشى بكما، كل عائلتي ستكون هناك. كما أن أخي سيصطحب رفيقته ليعرفنا بها. وأعتقد أنه سيعلن موعد زواجهما أيضا. ستكون أمسيةً رائعة. فإن لم تستمتعا فستأكلان أطيب سمك في حياتكما.

تبادلت وصديقتي النظرات بتعجب وقلت:

- ماذا ستقول لعائلتك عنا؟

- سأقول أني أعرفك منذ أيام المدرسة، وأنك صرت أستاذة تاريخ و حضارات. "وضحك"، عائلتي يحترمون المعلمين كثيرا.
- أستاذة تاريخ وحضارات! كيف يعرف؟

ولأنني حقا أستاذة تاريخ و حضارات همست صديقتي:

- هذا الرجل يتعقبك. فلنرحل.

قال:

- لا تسيئي بي الظّنّ.

سألتُ:

- وماذا ستقول لهم أيضا؟
- لاشيء، ولكن سأقول لك شيئا مهما إن أتيت.
- سآتي.

وافترقنا.

في الغد اصطحبت صديقتي مكرهة إلى بيت البحار. إذ لم تكن قادرةً على تركي أذهب بمفردي. كما عمدت إلى اصطحاب زجاجة من ماء الفلفل الحار في حقيبتها تحسبا لأي خطر. فاستقبلنا نضيف الهيأة حليق الذقن مرتب الهندام، بل في أناقة نبهتني إلى وسامته.

كان طويل القامة مفتول العضلات كأغلب البحارة. شعره طويل نوعا ما، عيناه سوداء داكنة تلفها بعض التجاعيد. ويضع عطرا أيضا. رحب بنا وقال:

- اسمي أسامة.
- وأنا مريم.

ودخلنا

عرَّفنا على أفراد عائلته، والغريب أن لا علاقة لأي منهم بالبحر فوالده موظف حكومي وأخوه طيار. وكأنما تنبه إلى حيرتي فقال:

- والداي يعرفان أن لكل إنسان شخصه واهتماماته وأحلامه الخاصة ولم يفرضا على أي منا ما يفعله في حياته.

تناولنا الغداء، وكما قال، فإني أكلت أطيب سمك في حياتي ذلك اليوم. ساعدت وصديقتي في تنظيف الطاولة وجلي الصحون ولاحظت أن الجميع يقوم بالمساعدة أيضا، ثم أتانا والده بالشاي إلى الحديقة حيث جلس الجميع في حلقة. ووقف أخوه ليعلن لنا أنه ورفيقته قررا الزواج في رأس السنة. فهنأهما الجميع وهنأناهما أيضا. ثم قام أسامة وقال أنه سيعلن شيئا أيضا:

- أمي، أبي، أنا قررت أن أنحى في حياتي منحى جديدا وهذا المنحى يحتاج شريكا. لذا أنا أطلب مباركتكما في ما يلي.

ثم تقدم نحوي وأمسك بكفي بكلتا يديه وأنا أمعن النظر إلى وجهه لعلي أفهم ما يريد فعله. فنظر مباشرة في عيناي وقال:

- أمي وأبي باركاني لأطلب يد الآنسة مريم.

في غمرة صدمتي و حيرتي سمعت أمه تزغرد، والجميع يضحك و يبارك و يعلقون على مفاجأته لهم. عرفت أنه ليس مقلبا، إذ صمت الجميع حين قال:

- لا تتسرعوا. لم نسمع ردها بعد. آنستي الجميلة، هل تقبلين الزواج بي؟

أجبت دون أن تفارق عيناي وجهه:

- نعم.

للأسف أن صديقتي أفسدت جمال اللحظة فقد أغمي عليها.

ما عدا هاتان الحماقتان لم أخالف المألوف في حياتي. كنت مثال الطفلة المهذبة المطيعة. لم يتعب والداي في دراستي أو تربيتي. توظفت كأستاذة تاريخ وحضارات سريعا لأني كنت الأولى في كليتي. ولأنني باحثة كادّة جادّة منذ عرفت أن شعوبا عاشت قبلنا على هذه الأرض وكان لكل منها لغة وحضارة ودينا وثقافة خاصة بها.

لذا كانت الصدمة عظيمة على أهلي إذ عرفوا أني نويت الزواج من بحار. وأعتقد أن الصدمة ستكون قاتلةً لو عرفوا بأمر زيارتي إلى بيته يوم عرفته.

لا أنكر أني كنت مترددة في البداية. وأن اجابتي بنعم يومها لا تعدو أن تكون لحظةً رومانسيةً فريدة أحببت أن أحظى بها. ولكن مع مرور الأيام وتوالي مواعيدنا وأحاديثنا، صرت مصممة بلا حدود. رأيت في هذا الزوج ما لم يره غيري: كل ما لم أحظ به في حياتي وما لم أجرؤ عليه. حريته، ثقته في حماقاته وجنونه، اعتداده بنفسه وباختلافه... عشقه لي. يعشق فيّ أشياء لا أعرفها عن نفسي. يقول إنه يحب شبهي للبحر؛ مظهري بسيط وداخلي زاخر. يسألني عما أعرفه من تواريخ ويستمع إلي كمؤمن صادق يستمع إلى كتاب مقدس، كطفل يصغي إلى أساطير الأبطال. ويقول أن صيغتي للكلمات والأحداث لا مثيل لها.

تزوجنا. وظللت كما أنا محافظة هادئة لا أغادر حدودي التي أعهدها. وظل كما هو ثائرا، مهووسا بالحرية متمردا على كل ما اعتدنا عليه. وعشق كل منا الآخر بكل ما فينا من اختلاف وتضاد.

ولكن رفض أهلي لحماقتي هذه كان جديا إلى ما لا نهاية. فقد قرروا مقاطعتي بدءًا بعدم استقبال الخطاب مرورا بعدم حضور حفل الزفاف الذي كان خلافا لما يعتقدون غايةً في الفخامة والبهرج. وأخيرا بعدم قبولي ثانيةً في بيتنا. ورغم أني حاولت مرارا مهاتفة والديّ إلا أن رفضهما كان قاطعا. حتى استسلمت يوما وكففت عن المحاولة. حتى جاء اليوم الذي تعرض فيه أبي إلى حادث وتوفي ولم أسمع إلا بعد وفاة أمي التي تعرضت للاكتئاب بعد فقدانه حتى أسلمت روحها إلى خالقها.

يومها اقتحمت بيتنا كالمجنونة كنت أصرخ في إخوتي وبقية أهلي أنهم أقصوني حتى من رؤيتي والديّ قبل دفنهما. ولكني صدمت بأخي يجيبني بكل بساطة أن هذه كانت وصية أبي يوم تزوجت البحار. ووصية أمي يوم توفي أبي.

جن جنوني. وبكيت كما لم أبك في حياتي ولم يخفف ذلك من قسوة أخي إذ أصر أن أغادر البيت. البيت الذي يضم ذكريات طفولتي ورائحة والدين توفيا وهما غاضبين مني. البيت الذي حلمت أن أعود إليه بأطفالي ليزوروا جدهم وجدتهم وخالهم. البيت الذي طردت منه مرتين؛ يوم اخترت شريك حياتي، ويوم وفاة والدتي.

غلبتني قسوة الأيام وقسوة عائلتي. عدت إلى منزلي بقلب محطم. وغضب عارم. وصببت جام غضبي على أبيك.
قلت له إن زواجنا ملعون. إنني اكتفيت من سخط الدنيا منذ تزوجته. قلت إني أريد أن أفارقه.

رغم صراخي وكلماتي الجارحة، إلا أنه كان مسالما كما عهدته. وقال أنه لن يلومني على كلمة مما تفوهت، أنه يعرف إحساس الظلم والفقدان الذي أعيشه، وأنه لن يتخلى عني في أحلك ظروفي.

وأنا في أوج حنقي صمّمت على قراري. فقال إنه ذاهب في رحلة صيد وستدوم ما شئت أنا. يكفي أن أعلمه يوم أريد منه أن يعود. و أنه يوم يعود لن يحاسبني على شيء. وذهب.

وعرفت لاحقا أن صديقتي التي أتت بحقيبة ملابسها لتبيت عندي عدة ليال متتالية، قد فعلت ذلك بطلبٍ منه.
عشت أياما سوداء حزينة باكيةً ساخطةً، وما هون علي سوى وجودها بجانبي.

مرت أسابيع حتى وجدته يطرق الباب يوم غادرت هي. عرفت في الآن أنهما يتواصلان. كنت أتوقع عودته لكني لم أكن أعرف متى وكيف وماذا سيقول ولا كيف سيكون موقفي.

قلت:

- لماذا لم تفتح الباب بنفسك؟

قال:

- كنت سأفتح لو أنك دعوتني للعودة. أما وأنا عائد دون طلبك فأفضل أن أعرف إن كنت ستقبلين أن نتحدث أولا.

قلت:

- هذا بيتك.

وفسحت له المجال، وقبل أن ينبس بكلمة أكملت:

- أنا من ستغادر.

لحقني وقال:

- لا أريد أن تندمي، ما جمعنا يوما ليس الحب. الحب للناس العاديين. أما نحن فخلقنا شيئًا استثنائيًا خلقنا رابطا أقوى وأسمى. لن تصنعيه يوما مع غيري ولن أصنعه مع غيرك.

قلت:

- أرجوك أنا متعبة.

قال:

- والطفل؟

قلت:

- أي طفل؟

قال:

- طفلنا الذي ينمو في رحمك.

دارت بي الدنيا، وتشوش عقلي. طالما حدثني سابقا عن أشياء ستحدث معنا وتحدث. وكنت أعتقد أن صفاء نفسه هبة من الخالق تجعله يحس بحدوث الأشياء. ولكن أن يعرف بحملي اليوم بالذات بعد مرور خمس

سنوات على زواجنا. وأنا التي لم أكن متأكدة أصلا من حملي! يأتي هو من رحلة صيد بعد أسابيع من فرقتنا ليؤكد شكي؟

تماسكت حتى أعرف الحقيقة، وقلت:

- أخبرني الآن. من أنت؟ وكيف تعرف؟

فابتسم وتقدم نحوي ليعانقني، ولكنني تراجعت وطلبت منه أن يتكلم أولا.

قال:

- لا تخافي أنا أسامة زوجك ورفيقك وعاشقك الذي لا يرى بعدك من النساء أحدا. وأنا أب طفلك الذي طالما انتظرته وتمنيته. ولكني أختلف عن باقي الناس أنني تلقيت هبةً في صغري كانت كفيلةً بأن تغير حياتي. ولكنني أبيت إلا أن أعيشها معك. ثم أن أورثها لولدنا.

والقلب يعشق قبل العين أحيانا

أنا كما تعرفين أصغر إخوتي وكنت مثالا لصغير العائلة المدلل. يهتم بي الجميع ويلبون طلباتي. بل ويبالغون في تحقيق كل ما أريد. حتى أني مللت من كل ما أملك وطمعت في أشياء لم يفكر فيها غيري. مللت من ألعابي ودراستي رغم أني لم أكن فاشلا في المدرسة ولكن الدلال أوهمني أن ذهابي يوميا إلى المدرسة وقيامي بالواجبات وحتى انصياعي لأوامر المدرسين يحد من حريتي التي هي حقي. فطلبت من أهلي أن أنقطع عن الدراسة. وطبعا رفضوا جميعا وقطعا طلبي هذا. وكان هذا أول رفض أقابله في حياتي. لم أيأس وضللت ألح بطلبي ولكني لم أصل معهم إلى شيء خاصةً وأني حدثتهم أني أريد أن أصبح بحارا مثل هؤلاء البحارة المغامرين الأحرار. يعيشون في البحر بعيدا عن المدينة وقواعدها الاجتماعية.

كبر التحدي في رأسي ولأني كنت ذا طبع مُدَلَّل لا أعرف من المسؤولية أو الخوف شيئا، هربت من بيتنا في ليلة كنت قد راقبت إحدى السفن قبلها وعرفت ميعاد إقلاعها. وتسللت إليها لا أنوي شيئا سوى تجربة المغامرة. في الغد خرجت من مخبئي أتسلل في هدوء حتى لا يلاحظني أحد. ولكنهم انتبهوا إلي وأمسكوني. ولأنني كنت فتى مراهقا لم يعنفوني أو

يؤذوني... فقط استجوبوني ليعرفوا حكايتي. وضحكوا كثيرا من سخافتي وتهوري إلا رئيس المركب الذي غضب مني كثيرا وأمر بسجني في حجيرة أسفل المركب حتى يعودوا بى على الفور إلى أهلي. ولولا تدخل بعضهم لكان عاقبني بشدة أكثر.

لم نكن قد ابتعدنا عن المرفأ بمسافة كبيرة. لذلك لم أظل في حبسي سوى ساعة أو أقل. ولكنها كانت بالنسبة إلي دهرا. ذلك أن الحجرة كانت مظلمة رطبةً مليئةً بالمعدات والأدوات. مما سرب الخوف إلى نفسي. خاصةً وأن الرجل نعتها بغرفة الأشباح. وربما قصد بذلك اخافتي حتى لا أعيد فعلتي. وربما لأنه يعرف سرها.

كنت أجلس القرفصاء و أبكي خوفا وفزعا حين سمعت وقع خطوات تقترب مني في وضوح. رفعت رأسي فوجدت امرأة تقف أمامي وكأنها انبثقت من لا شيء. فزعت من رؤيتها خاصةً وأني سمعت الباب يقفل بعد أن رموني بالداخل. فمدت يدها ومسحت على رأسي وقالت:

- لا تفزع، لقد أتيتَ لتراني وها أني استجبت لندائك.

قلت:

- أنا لا أعرفك، ولم أناد أحدا!

قالت:

- عرفت أنك تريد أن تصبح بحارا وتعتقد أن هذا مستحيلا. عادةً ما أظهر لأشخاصٍ لأعطيهم الفرصة لتغيير أقدارهم. ولكن هذه المرة تختلف. إصرارك سيوصلك إلى حيث تريد. ورغم هذا فإني سأعطيك الفرصة. استمع واحفظ ما سأقوله عن ظهر قلب. خذ هذه الورقة.

ومدت لي قصاصة مطوية فأخذتها وهممت بفتحها. فأكملت:

- لن تستطيع فتحها. وستفعل ذلك في عيد ميلادك الثامن عشر. وستقرأ فيها ما تخبئه لك الأقدار وفي نفس اليوم تستطيع أن تغير فيها ما تشاء. وسكتت.

ثم بدأت تتلاشى عن ناظري. وسمعتها قبل أن تختفي تضيف.

- ولأنك ذاهب إلى حيث تريد، فكر في تقديم هديتي لشخص تحبه.

عدت إلى بيتنا، وعاقبني أبي وبكت أمي كثيرا لاعتقادها أن مكروها قد حل بي. ومنذ ذلك اليوم اختلفت تصرفات أهلي معي. نسيت الدلال وصرت أعامل كمراهق متهور، يحرصون على سلامته وحسن تصرفه. وواصلت دراستي وأنا متأكد أن يوما ما سأحقق حلمي. حاولت مرارا فتح القصاصة ولكنها لا تفتح ولا تتمزق. فلم أحدث أحدا بالأمر. إلى أن أتى اليوم الموعود.

انتظرت حتى أقاموا من أجلي حفل عيد ميلاد ثم انفضوا كل إلى غرفته. وانزويت مع قصاصتي في غرفتي وأقفلت الباب. وفتحتها.

مباشرة اختفى كل ما يحيط بي من غرفة وأثاث ووجدت نفسي كأني أطير في علياء وأنظر تحتي إلى مدينتنا الرابضة على شاطئ البحر والمرفأ من بعيد. ثم اقتربت ولم أكن أفعل ذلك بل كأن هناك من يحركني كدميةٍ ويقربني من أناسٍ لأرى ما يفعلون ويقولون، ثم ينقلني في السنوات لأرى ما يحدث في أزمنة أخرى.

رأيت نفسي أتخرج من الكلية، ثم أشتري مركبا بالشراكة مع الرايس الذي عاقبني وأنا صغير. رأيت أني أتزوجك وأنك تحدثينني عن أساطير الإغريق وتواريخ فانية. ورأيتك تنجبين ولدا يشبهني وتذكرين لي تاريخ اليوم وأنه تاريخ ولادتنا من جديد. ورأيت أحداثا كثيرةً أخرى بعضها رسخت في ذاكرتي وبعضها أتذكرها قبل حدوثها بقليل وبعضها نسيتها.

أحببت كثيرا أن أمسك الطفل بين يدي ولكن رحلتي انتهت وانتبهت لأجد نفسي كأنما أفيق من حلم حقيقي. وجدت الورقة في يدي وقد كتب عليها "اكتب هنا" وفعلا أمسكت قلما وهممت بالكتابة. ولكن ماذا سأكتب؟ لقد وقع قلبي رهين حبك وأنا لا أعرفك أصلا. وانحاز شوقي إلى ذلك الطفل الذي أحببت أن أحمله بين يدي ولم أقدر.

وقررت أن أرضى بما قُدِّر لي بل وسعيد به. وتذكرت قولها "فكر في تقديم هديتي لشخص تحبه" فكتبت على قصاصاتي أن ولدي سيقابل السيدة صاحبة الهدية في أحلك ساعات حياته لتعطيه نفس ما قدمته لي.

الآن تعرفين لم كلمتك في المرفأ أول مرة، وكيف عرفت أنك مدرسة تاريخ، ولمَ طلبت يدك مباشرة. لقد أحببتك من قبل أن أعرفك. تعلقت بك منذ رأيت نفسي معك، رأيت سعادتي فيك. منذ رأيت ذلك الطفل بيننا، صرتما أكبر أحلامي. وقد انتظرتك سنينا حتى ظهرت أخيرا.

مريم، لقد ضحيت بكل ما تحبين من أجل حبنا يوما. واليوم وقد تحول إلى إيمان مقدس بأن ما يجمعنا أمتن وأذكى وأنقى من الحب نفسه. نحن رفقة وشركاء. نحن تكملة كل منا للآخر. والآن أنت تعرفين أننا والدين لطفل أحبه سلفا ومنذ سنين. وستحبينه أكثر لأنه قطعة من كلينا.

اليوم أتممت معرفتك بي. لا شيء غير ما حدثتك به الآن، تجهلينه عني. فقط شيء واحد لا تنسيه: أتذكرين عندما حدثتني عن أسماء ومميزات الآلهة الإغريقية عن بعضها؟ طبعا تذكرين. أريد أن نسمي طفلنا إسكليبيو، لأنه سينقذ حبنا من الاندثار... تعالي وعانقيني...

لم يكذب علي مرة في حياته. تطلب مني استيعاب الأمر أياما وأنا أطرح أسئلة من حين لآخر. أما الصفح والعودة إليه فلم يتطلبا مني أكثر من ثوان.

بعد ولادتك عشنا سنة كالحلم. كأننا امتلكنا أعجوبة من عجائب الكون. عشنا سنة نعشق وجهك وحركاتك وصوتك. حتى أن أباك قرر الابتعاد وقتا عن البحر لأنه لا يطيق فراقك. ولكن شريكه احتج وتذمر بيد أنه طاعن في السن ولم يعد يطيق العمل المجهد والإبحار. وطلب منه إما أن يعود للعمل أو يبيع نصيبه لمن يستطيع القيام بالعمل.

المركب لم يكن مصدر رزقه وحده، بل عشرات العمال على متنه، خاصة وأن الفصل كان شتاء وهم يترصدون صحو الطقس ليبحروا. اقتنع أسامة بأنهم على حق وأنه لم يفكر إلا في نفسه. وجهزوا المركب وأبحروا.

ومنذ ذلك الصباح لم يعد أي منهم. تعرضوا إلى عاصفة هوجاء أغرقت المركب وألقت بهم على شاطئ صخري على مشارف بلد مجاور. استلم بعض الأهالي جثثا وضاعت باقي الجثث في البحر. كنت أكيدة أنه لن يعود، فهوسه بالحرية لا يمكن أن يكون مصيره وآخرته القبر.

لم أستطع بعد ذلك أن أعيش قبالة المرفأ يوما واحدا. لذلك أخذتك وابتعدنا. صحيح أننا نعيش الوحدة هنا. لكني لا أطلب ونسا غيرك. أما أنت فتعرف منازل جدك وعمك وها أنت تزورهم دائما.

- والآن، هل ستخبرني؟ هل قابلتها؟

الذنب

خرجت من غرفة العمليات إلى الرواق لأجد أهل الرجل يقفون وعيونهم الحائرة متعلقة بالباب في انتظار خروج أي منا. لابد أن يكون هذا الشيخ الهرم أباه، و هذه زوجته والطفلة... يا ربي. وهذه المرأة، أعرفها إنها أخته، كانت تسبقنا بسنة في المدرسة. تقدموا جميعا نحوي وانهالوا علي بوابل من أسئلة عن حاله وهل مرت بسلام وهل... سيتحسن؟

تدلى وجهي مكفهرا ومحرجا وقدمت تعازيَّ. لم أشهد في حياتي موقفا كهذا ولا أعرف إن كنت سأشهد مثله لاحقا. ولم أعرف كيف يجب أن أتصرف ولا ماذا أقول. ولكن أحدا لم يلتفت إلي بعد أن أعلنت وفاته. فقد أجهشت زوجته وأخته بالبكاء وانهار الأب على كرسيه من الصدمة وقد غطى وجهه بكفيه. وبقيت الطفلة مرتبكة محتارة مما يحدث وبدأت تبكي لبكاء أمها وهي تناديها وتعانق خصرها. فانحنت ملبية نداءها وعانقتها بشدة واحتد بكاؤها أكثر.

في عشية هذا اليوم لم أستطع العودة إلى بيتي، ولم أرد البقاء في المستشفى. شيء ما ألهمني الذهاب إلى بيت المتوفي. فطلبت من عباس أن يأتيني بعنوان بيته من الاستعلامات، فأجابني مشفقا:

- لا داعي لأن تفعل ذلك، سوف تلفت الانتباه نحوك. ثم صحيح أنك تواجه موت أحد مرضاك لأول مرة ولكنك قمت بما عليك على أحسن وجه. ولا داعي أن تشعر بالذنب وكل هذا الحزن.
- وما أدراك؟
- هذا ليس رأيي أنا فقط. الكل يجزم بأنك بذلت أقصى جهدك. إنه قدره أن يموت اليوم.
- نعم، قمت بما وجب علي فعله. الموضوع أن الرجل كان زميلي و... صديقي في أيام الدراسة. ولم أره منذ زمن بعيد. وانظر ما حدث الآن. بعد كل هذه السنوات ألقاه مصابا في حادث وأفشل -أنا الجراح المرجع- في إنقاذه. يجب أن أحضر عزاءه ودفنه.

توصلت إلى معرفة بيته. وجدت الباب مفتوحا والناس في دخول وخروج. لم أعرف ممن أستأذن فدخلت حتى وجدت أخته واقفة إلى جانب الزوجة وهي تربت على كتفها. عرفتني إذ تقدمت نحوي ومدت يدها إلي قائلة:

- ألست...؟
- نعم أنا الجراح الذي قام بالعملية إثر الحادث.
- حقا! ألست زميل أخي في المدرسة؟ أنا أذكر وجهك. لكني لا أذكر اسمك اعذرني.

يا للهول، ماذا لو أنها تعرف ما كان بيننا؟ ستشك في حتما. أجبتها:

- نعم، كنا كذلك، وقد حز في نفسي أن أراه بعد كل هذه السنوات في بلاء وأعجز عن نجدته.
- لا عليك. هذا قدرنا جميعا: أن يرحل عنا في شبابه. أن أفقد أخي وعزوتي. أن تترمل زوجته وتتيتم ابنته. آسفة أنا لا أخفف عنك هكذا. تعال سأعرفك بزوجته لتعزيها.

تبعتها خطوات نحو السيدة التي كفت عن البكاء ووضعت طفلتها في حجرها وأخذت تهمس لها بكلمات في أذنها وهي تمسح على ظهرها. قدمتني لها على أني صديق زوجها. ولكن الزوجة كانت حادة الملاحظة، إذ قالت:

- وأنت الجراح الذي قام بالعملية أيضا. شكرا لقدومك.
- أنا آسف يا سيدتي. جئت أقدم تعازي وخدماتي. أعني أن زوجك كان صديقا مقربا. اعتبريني أخاه وتستطيعين الاتصال بي متى شئت أو احتجت. سأكون سعيدا لو أزلت أي تكاليف واعتبرتني أخا وفردا من العائلة.

تبسمت في امتنان أو ربما مجاملة، وأومأت برأسها وشكرتني.
عدت إلى منزلي و أنا أحمل هم الدنيا على كتفي. الكارثة أني نسيت كل ما حدث داخل غرفة العمليات ولم يعلق في ذاكرتي سوى وجهه المخضب بالدماء وهو يتوسل أن أنقذه، ثم رفع الممرضة الغطاء على وجهه، وأخيرا الطفلة الحائرة و هي تبكي ولا تدري لمَ لم أستطع النوم ولا حتى وضع

لقمة واحدة في فمي. شيطان ثرثار في رأسي يتهمني أني قتلت الرجل عمدا... إنني مجرم لا أمت لشرف مهنة الطب بصلة. يتهمني بأني أمثل الملاك على من حولي وعلى نفسي. إنه يذكرني بما قالته سيدة المنزل المهجور:

- تذكر: للجدارة أداة وعلامة: العمل والامتنان.

لقد عملت من أجل حلمي بجهد جهيد. ولكن استغلالي لمكانتي لأنتقم وأقبض روح الرجل هو الجحود بعينه.

لم أعد قادرا على سماع صوته، ولا على رؤية الوجه الدامي في الحيطان والمرايا. لبست معطفي وخرجت للشارع لا مقصد لي سوى الهرب. انطلقت أمشي في الطرقات أسير حينا و أركض حينا، ثم أتوقف لأراقب أشخاصا عائدين إلى بيوتهم أو يشترون من محلات. أو أتفرج على بنايات أو لافتات وإعلانات. كان أي شيء كفيل للفت انتباهي المشتت. ربما لأني أحاول ألا أفكر فيما حدث. وربما ببساطة لأني لا أعرف مدينتي.

صديقي الممرض محق في قوله أني لا أعرف سوى طريق ذهابي وإيابي من المستشفى. حتى أنني أكلّف البواب باشتراء مستلزماتي. ولأنني أعرف محلا للملابس الرجالية ذات جودة في الشارع المقابل للمستشفى، فأشتري منه كلما احتجت بعضا من أبسط موديلاته الكلاسيكية. وددت لو أذهب إلى بيت أمي. لكن لو طرقت بابها في هذا الوقت سأقلقها، ولا رغبة عندي في الحديث والتبرير الآن. ليتني أستطيع وضع رأسي على حجرها والبقاء

في هدوء هكذا دون أن يقلقني أحد. أتركها تداعب شعري وتحدثني أحاديثها المحببة عن حبها لي وأني ألطف وأحن ولدٍ حظيت به أم... لن أفعل، لن أفزعها.

قضيت ثلثي الليل وأنا أجوب الشوارع أتناسى ما يريد أن يكدر نومي. والظّاهر أن عدم معرفتي بالمدينة له إيجابيات فقد ساعدني ذلك كثيرا وكأنني سافرت إلى مدينة لا أعرفها.

مسح ظلام الشوارع وبرودة النسيم كل الحزن والألم في قلبي، بل وأحسست بالاستمتاع بجولتي. تمكن مني التعب إلى حد أقنعني أن أعود أدراجي خاصةً وأني ابتعدت عن بيتي مسافة تكفي أن تستنزف ما بقي لي من طاقة.

في الصباح أخذت حماما سريعا واتجهت مباشرة إلى بيت عدوي السابق المتوفي. لم أتخذ قرارا في ذلك، لكن خطر في بالي أنه يجب عليّ أن أذهب مرة أخرى. جلست في بداية الأمر ضمن الحضور ومع مرور الوقت بدأت في التمعن في البيت من حولي. بيته عادي جدا كأي بيت لعائلة متوسطة الحال. ألوان هادئة وديكور بسيط، شبابيك متينة كأنها جدِّدت حديثا، حيطان نظيفة، بعض الصور للطفلة في مختلف سنوات حياتها القليلة، بساط دافئ ذو زخارف تقليدية. ثم بدأت في متابعة الطفلة. لسبب ما كان وجه الطفلة مألوفا للغاية، كأني أعرفها من قبل وكأن بيننا مودة. كانت تجوب المكان وراء جدتها حينا أو تجلس في حضن أمها حينا آخر.

أمها؛ سيدة في الثلاثينات ذات ملامح دقيقة وعيون ضيقة ذات اخضرار نباتي هادئ، بشرتها صافية بيضاء تميل إلى الصفار ربما لوقع الفاجعة وقلة الطعام والنوم. ذات خدود مدورة أورثتها لابنتها. شعر طويل أملس يكاد يلامس الكنبة التي تجلس عليها. كانت من نوع النساء التي لا تلاحظ جمالها بنظرة سريعة إلا إن توقفت ونظرت جيدا آنذاك سترى جمالا حلوا ذا تأثير مخدر ومدمن.

يا لحظه! لقد امتلك السعادة والطمأنينة بذاتها. من لا يريد العودة إلى مثل هذا البيت الدافئ وهاذين الملاكين كل آخر يوم؟ بل يا لسوء حظه! ما أعظم ما غادره في هذه الدنيا. هذا بالضبط ما ينقصني. وكأني بلّغت فكرتي إليها إذ رفعت رأسها لتجدني أحدق فيها. ارتبكت ونزّ العرق من كل مسام جلدي دفعةً واحدة. استدركت نفسي كأني كنت أنوي أن أكلمها وسألتها:

- متى سندفنه؟

تجاوزت ما حدث ربما حتى لا تحرجني، وربما لأنها لا تهتم أو لا تريد أن تهتم وأجابتني.

حملت مع أبيه وبعض أهله النعش إلى سيارة الدفن ومضينا به إلى المقبرة. ورأيت على وجهها حسرة وغصةً طاغيتين، تنم عن حزن وغضب وغيظ أو حبٍ كبير. لا أستطيع أن أجزم خاصةً وأني آخر من يفهم في العلاقات بين الأزواج.

بعد الدفن تذكرت أني نسيت سترتي في بيتها. خشيت بعد أن ضبطتني أمعن فيها النظر أن تشك أني تناسيت سترتي لأعود. ولكن إن تركتها قد تشك أني تركتها حتى تتصل بي. وقررت أن أعود مع العائدين. واعتذرت أني نسيتها وغادرت بكل بساطة. ولكنني تداركت وعدت، اتجهت قدما نحو السيدة التي بدت أنها والدتها وطلبت منها أن تناديها حتى أكلمها في حضورها. وسألتها قبل أن تفعل:

- ألست والدة السيدة زوجة المتوفي؟

أكدت لي ذلك. أتت الزوجة وكانت تنظر إلي في حيرة وهي تقرن حاجبيها وتتمسك بيد طفلتها ووقفت تنتظر ما أريد، فقلت:

- سيدتي، أنا... أنا كما أخبرتك أمس، صديق قديم لزوجك. وقد كانت له أفضال علي لا أنساها. وأرجو من كل قلبي أنا تضعي في اعتبارك استعدادي الكامل لتلبية أية احتياجات وطلبات لك ولابنتك. وأن أعود لتفقدكما متى سمحتِ بذلك. أردت من السيدة والدتك أن تحضر ما أقوله حتى تطمئني إلى حسن نواياي. طبعا إن كنت ترفضين أن أتصل بك أو أُعنَى بيك فلك كل الحرية. إلا أني سأكون ممتنا حقا إن اعتبرتني أخا لك.

تبادلت النظرات مع والدتها التي كانت تبتسم لكلامي. ثم حسمت أمرها وقالت:

- أشكرك، الحقيقة أني ...

- قولي من فضلك.
- أنا لا أملك رخصة قيادة وإلى حين أحصل على واحدة سأضطر إلى تكليف الجد بأخذ ابنتي يوميا إلى المدرسة وإعادتها. وهو قصير النظر ومجهد كما ترى. فإن كنت لا تسكن بعيدا فسأكون شاكرةً إن تولّيْت هذه المهمة.

وهنا تدخلت أمها:

- لا.. لا.. لابأس يا ابنتي

أعرف أنها تفكر ألا تترك طفلةً مع رجل غريب. فأضفت:

- أنا أسكن قريبا من هنا وأستطيع أخذك معنا عند الذهاب والإياب. خاصةً أن الطفلة لا تعرفني وقد ترفض الذهاب معي.

وهنا انفرجت أسارير الأم. فأضفتُ:

- بالمناسبة، اسمي إسكلبيو

فقالت:

- أعرفك. وأنا سوسن.

خضّتني إجابتها، ولكنني تجاوزتها. أعطيتها رقم هاتفي وسلّمت وغادرت.

هل حدثها زوجها عن إسكلبيو؟ فكيف عرفت أنني أنا هو؟ لا... هي تعرف الدكتور الذي أجرى العملية لزوجها. أكيد أنها سألت عن زوجها فأخبروها

أني أنا الدكتور إسكلبيو المعروف الذي قام بالتدخل الجراحي العاجل. ذلك هو.

بعد ثلاثة أيام هاتفتني لتخبرني أن الطفلة ستعود إلى المدرسة بدءا من الغد، وحددت لي ساعة الذهاب وساعة العودة حتى أنظم جدولي. فأخبرتها أن أية ساعة تناسبني ولن تتسبب في أي تشويش أو قلق في عملي. لم يكن ذلك صحيحا خاصة وأني سأذهب إلى بيتها كل مرة لاصطحابها قبل العودة بالصغيرة. ولكني كنت سعيدا بهذه المسؤولية.

وضعت ابنتها في الكرسي الخلفي للسيارة، ثم تقدمت لتجلس جانبي. كنت محرجا. وهي كذلك، إذ جلست في طرف الكرسي وضمت يديها وساقيها وجعلت تنظر إلى طرف النافذة في استحياء. ولكنني فكرت لم لا أعتبرها حقا كأخت لي وأتصرف معها بكل بساطة لعلها تستأنس وتسترخي. ماذا كنت سأتحدث مع أختي؟ ليس لدي أخت! حسنا سأسألها عن حال الصغيرة، فكرة رائعة.

- كيف حالها؟ هل تتخطى الأزمة ؟

أجابتني بالإنجليزية:

- لست متأكدة أنها تفهم ما يحدث، إنها تراقبنا منذ بكينا في المستشفى، وتطرح أسئلة. يوم دفناه بكت أنها لن تراه ثانية ثم نامت. ومنذ استيقظت لم تسأل عنه مجددا.

عرفت أنها لا تريد أن تفهم الصغيرة ما نقول، فجاريتها:

- راقبيها إذن، ربما لو أحطت بها كثيرا قد تحدثك أو تجيبك بما تشعر أو تفكر.
- أنا أيضا أمر بفترة عصيبة. لم أستوعب ما حدث، والناس يتدخلون في شؤوني ويحاولون تخطي حدود حياتي. حتى صرت كاسفة البال، لا يتسع صدري لأهتم بها كما يجب. كم أشعر بالذنب.
- لا تفعلي. لم يمر سوى أيام على رحيله. ووصلت إلى مرحلة الذنب! ابنتك أهم ما في حياتك، أليس كذلك؟ ضعي حدودا لأي كان يحاول تخطي حدوده. سيغضبون ثم سيصفحون. الأهم قبل المهم. ما رأيك؟

التفتت تنظر في وجهي كأنها تفكر في ما قلت. ثم التفتت إلى ابنتها وقالت لها:

- أنا أحبك، أحبك كثيرا.

أحببت أنها وضعت اعتبارا لكلامي، فطفقت أحكي لها كيف كانت أمي تحاصرني بالاهتمام حتى أصب عندها كل حكاياتي وأسراري. كيف كانت تحضر لنا عشاءً وسهرة حتى نصل إلى لحظات الصفاء التي يفصح فيها المرء عن كل هواجسه ومكنوناته. وضحكت عندما أخبرتها أنها لا تزال تؤثر علي بأسلوبها هذا.

في المرات اللاحقة صارت تتحدث معي أكثر فأكثر. خبرتني أنها تعمل كصانعة حلويات في أحد المحلات المعروفة في وسط المدينة، وأنها رغم مدخولها المتوسط تحب عملها ولها علاقات مميزة مع حرفائها الأوفياء. حكت لي عن علاقتها بأمها التي بدأت كأيّة أم، تستحثُّها على القبول بالزواج مجددا خاصة وأن العروض لم تكن قليلة ولا هينة. إلا أن ما كان يشغلها حقا كان التبدل الذي طرأ على طبع طفلتها نورة وتصرفاتها. إذ صارت تلجأ إلى الهدوء والصمت. فإذا تحدثت عاندت وأصابتها العصبية سريعا.

في محاولة لمساعدتها على تفكيك الأزمة، قلت لها إنها ولا شك لم تتجاوز صدمة وفاة والدها. وعلى الأقل لا يجب أن تحس بالنقص في أي احتياجاتها اليومية حتى لا يعظم حزنها. والأكيد أنها كانت تحاول دون كلل رفع الحزن عنها. ولكن الطفلة باتت متحجرةً وصارمة مع من يحاول معها أكثر من اللازم.

كانت الطفلة تبلغ الثامنة من عمرها. وهي رغم صمتها قد عبرت عن ذكاء وفطنة في كلماتها القليلة التي تفوهت بها أمامي. لكنني لم أكن أجرؤ يوما على فتح الأحاديث معها خوفا أن ترد الفعل بفظاظة فنخسر علاقتنا قبل أن تبدأ.

هاتفتني سوسن يوما لتخبرني أنها ستتأخر في الخروج من عملها، وطلبت مني إحضار نورة إلى محل عملها، إن كان هذا لا يضايقني. أحسست أنها صارت تثق بي حقا فطمأنتها أن كل شيء سيكون على ما يرام.

وقفت أمام باب المدرسة، وعندما رأتني جالت بعينيها حولي باحثةً عن أمها. وحين لم ترها تقدمت نحوي وسألتني عنها. أخبرتها أن والدتها لا تستطيع المجيء وأني سآخذها إليها. امتعضت وسكتت. مددت لها يدي حتى نعبر الطريق فترددت، ثم حزمت أمرها ووضعت كلتا يديها في جيوبها، فقلت:

- حسنا، إذا لا تعبري حتى أقول لك. اتفقنا؟

فأومأت برأسها إيجابا. صعدت إلى السيارة وجلست صامتةً. فقلت أدفعها للكلام:

- أنا لا أذكر عنوان المحل. هل تعرفين أين يقع؟ هل ترشديني؟

فنظرت إلي متشككة في كلامي ولكني تظاهرت بالجدية. فقالت:

- نعم.

وبدأت ترشدني إلى الطريق. وما دامت بدأت تنطق استغللت الفرصة لأحاول تجاذب الحديث معها. فقلت:

- اسمعي، أريد منك نصيحةً صادقة. غدا سيكون عيد ميلاد أمي، و أنا لا أعرف من أين أشتري كعكة. فكرت أن أشتري من والدتك،

ولكني لم أتذوق مرةً من عندها. ولو سألتها فستقول حتما أنها تصنع أحسن مرطبات في كل المدينة. الجميع يقولون عن أنفسهم هكذا. ما رأيك هل تعرفين صانع حلويات أحسن منها؟

بقيت لحظات تحدق في وجهي في مرآة السيارة دون أن أعرف ما يدور بخلدها. ثم أطرقت مفكرةً حتى شككت أنها لن تجيب. وأخيرا نطقت:

- هل تعيش مع أمك؟

قلت:

- كلا، ولكني أبيت عندها كل عيد ميلاد.

فسألت مرةً أخرى:

- وفي عيد ميلاد والدك؟

أجبت:

- والدي توفي وأنا صغير.
- حقا؟
- نعم. ولكن الله عوضني بوالدتي.
- وهل تزوجَت بعد وفاة والدك؟

آه هكذا إذا! هي تخشى أن تأتيها والدتها بزوج ليعيش معها. تداركت أفكاري حتى لا أبطئ في إجابتها وينقطع تسلسل الحديث بيننا، وقلت:

- لا، لم تتزوج. أتعرفين؟ لا تتزوج كل الأمهات بعد فقدان أزواجهن. وإن فعلن ذلك فإنهن يحتجن إلى الزوج ليكون أبا لأبنائهن. أو لأنهن لا يستطعن الاعتناء بهم بمفردهن.

فوجئت بها تسند ظهرها في قنوط قائلة:

- هذا يعني أن أمي قد تتزوج. فهي تقوم بكل شيء بمفردها الآن.

يا لهول ما تفوهت به. كيف سأصلح الأمر؟ ماذا سأقول؟ هل تنوي أمها الزواج أصلا؟ وما دخلي كي أتكلم في مكانها؟ حسنا مادمت فتحت الموضوع سأتحمل المسؤولية. كما أنها لن تعيد على مسامع أمها ما تحدثنا به، فقلت:

- اسمعي نورة. أنا لا أعرف أمك إلا من أشهر معدودة. ولكني لا أعرف عنها إلا القليل. في حين أني أعرف عنك الكثير. أعرف أنك تحبين علوم الطبيعة ولا تحبين الرسم والشعر. أنت تحبين البيتزا بالفطر ولا تحبينها بالخضروات. أنت عكس البنات لا تحبين اللون الزهري وتفضلين الأزرق والبنفسجي. أنت لم تشتر أبدا عرائس ولكنك تشترين ألعاب الورق. كما أنك تحبين صنع المجسمات ثلاثية الأبعاد، وقد صنعت مجسما شبيها بغرفتك بورق الكرتون. وأعرف غير ذلك كثير. ومقابل ذلك أنا لا أعرف إن كانت أمك صانعة ماهرة للحلوى (وهنا كنت أكذب). أتعرفين ما معنى ذلك؟
- أمي تتحدث عني كثيرا.

- أنت فتاة ذكية ومميزة جدا. وأمك تعرف ذلك. وهي فخورة بك جدا. سوسن تتحدث عنك في كل مكان وعند أية فرصة لأنك محور اهتمامها. يعني أنك أهم ما في حياتها.
- ثم؟
- هي لن تقوم بأي خطوة في حياتكما دون أن تستشيرك ودون أن تكوني سعيدةً بها. لن تفعل شيئا ليس في صالحك. أمك ستكون سعيدةً جدا لو أنك تحدثت إليها عما تفكرين فيه. قولي لها إنك لا تريدين منها أن تتزوج. ما رأيك؟
- رأيي إنك تعرف الطريق إلى المحل.

ابتسمت وقلت:
- ألم أقل إنك ذكية؟

ولأول مرة رأيت نورة تبتسم.
وجدنا سوسن في باب المحل في انتظارنا. فقلت:
- هيا أسرعي قولي لي هل أطلب منها أن تحضر لي الكعكة؟ لا تخبريها أني سألتك.

فضحكت وقالت:
- إن كنت تحبها بطعم الشوكولا فاشتري من أمي. وإن كنت تريدها بالفواكه فلا تفعل.

نزلنا من السيارة وكانت لا تزال تحتفظ بالابتسامة على وجهها وأسرعت لتعانق أمها التي اندهشت من ذلك ونظرت إلي بتساؤل.

فقلت:

- الظاهر أنك كنت تقفين عائقا أمام صداقتنا.

أرادت أن تسأل شيئا فقلت لها بالإنجليزية أن نتحدث لاحقا. ثم أضفت بالعربية:

- أريد أن أطلب كعكة عيد ميلاد للغد، هل هذا ممكن؟

فأجابت:

- نعم أكيد. ادخلا. كيف تريدها؟

فأجبت على الفور:

- بالشوكولا.

وتبادلت ونورة ابتسامةً سرّية.
دفعت ثمن الكعكة وطلبت منها أن تكتب عليها "أحبك كل عام أكثر". وقبل أن أغادر اغتنمت فرصة أن الصغيرة تداعب قطعة عجين وقلت لسوسن:

- قد تود نورة الحديث معك اليوم أو الليلة. فإن كان ذلك فافسحي لها المجال واستمعي لها. إنها فرصتك لتسترجعي طفلتك.

فسألتني بتلهف:

- ماذا حدث بينكما؟ ماذا قلت لها؟ كيف سأجيبها؟
- سأخبرك لاحقا حتى لا تنتبه لنا. أنت أمها وستعرفين كيف تتحدثين معها. أنا واثق من ذلك.

وقطعت علينا الصغيرة الكلام، إذ جاءت تطلب من أمها قطعة حلويات من طبق ما. فقلت لها:

- يجب أن أذهب، اتصلي بي إن أردت أن تسألي شيئا عن الكعكة، أريدها مثالية.

فأومأت برأسها، وغادرتُ. كنت في أعلى هرم السعادة والفخر بنفسي. لم أتصور أني أستطيع يوما التعامل مع طفلة صغيرة تمر بأزمة نفسية. وأنا الذي كنت رجلا منذ صغري ولا أذكر من مشاعر الطفولة شيئا. كما أني لست أبا ولا حتى خالا!

ركبت سيارتي وخُيّل إلي أنها تسير فوق الأرض وفوق السيارات من فرط غبطتي وزهوي بفوزي. عندما فكرت أن سوسن ستكون سعيدة بعملي، اعترتني رَجْفَة اسْتِبْشار بل وطرب.

ولأن عقلي لا ينفك يدور حول المواقف من جميع النواحي. نبهني أن أتذكر أني قد أكون السبب في أزمة هذه المرأة وابنتها. ثم لِم غمرتني السعادة بهذا القدر إذ ذكرت سوسن؟ أبعد كل هذا الصبر سأستغل فترة حزن ويأس

امرأة لأتقرب منها؟ هل ستهتم بي الآن لأني أساعدها؟ أنا الذي قد أكون قاتل زوجها؟ مرحبا بيقظة عقلي وضميري.

عدت إلى البيت وقد انتقلت من قمة جبل السعادة إلى قارب في بحر القلق، ألواحه مثقوبة وشراعه ممزق تعبث به رياح الهواجس والحيرة. جلست على كرسي لا أتحرك زمنا لا أعرف مداه. تطوف بي الأفكار السوداء يحركها في هيجان ضميري الغاضب. حتى بدأت أتكمش في مجلسي، ورفعت ركبتي إلى ذقني وتكورت كعبد مملوك يتلقى لسع السياط على فعلة شنيعة أقدم عليها.

وفجأة رن هاتفي فأفزعني حتى كدت أسقط من على الكرسي. طبعا كانت هي. نظرت إلى التوقيت على الشاشة فإذا هي بلا شك العاشرة ليلا. فركت عينيّ بطرف أصابعي، إذ لا يعقل أني جلست كالصخرة طيلة ثلاث ساعات! ولكن الساعة أصرت أنها على حق. وانقطع الاتصال. جذبت نفسا عميقا ثم أضأت المصابيح وجلست على أريكة مريحة وطلبتها.

- مساء الخير
- مساء الخير، آسفة أني اتصلت في وقت متأخر. ربما أزعجك أو أزعج أهل دارك.
- أهل داري؟ من؟ الأثاث؟
- لا أعرف، وأنا أتصل، خطر ببالي أنك لم تخبرني شيئا كثيرا عنك. فقط... حسنا أنا حقا لا أعرف سوى اسمك وعملك. خطر لي أنك قد

تكون متزوجا أو أنّ لديك أطفالا ينامون باكرا. وفي كلتا الحالتين قد أزعجها أو أزعج الأطفال.

- نعم معك حق.
- آسفة على الإزعاج.
- لا...لا، أقصد أنك على حق في أنك لا تعرفين عني شيئا. أنا لست متزوجا. وأعيش بمفردي.
- ووالدتك؟
- تعيش في بيت غير بعيد.
- ومن يعيش معها؟
- فتاة صغيرة. حسنا لم تعد صغيرة، هي الآن شابة صغيرة. تبنّتها أمي عندما سافرت للدراسة. لقد اتصلت بي لتخبريني بما جد مع نورة أليس كذلك؟
- أوه نعم! ألن تقول لي ما حدث في السيارة أولا؟
- طبعا لا، أنت من ستقولين أولا.

ضحكت من كل قلبها، وكم تمنيت لو رأيت ضحكتها. فمن يوم عرفتها لم أر سوى الحزن على وجهها الناعم. صورت لي مخيلتي عينيها تضيقان، وخدودها تتمطى عن اتساع فمها الضاحك، وقد تظهر غمازات ويحمر وجهها أيضا... وتيقظت من أحلام يقظتي على قولها:

- طيب لن أعاند، لأنك أسديت لي معروفا ما لا أعرفه حتى الآن. سأحكي:

- منذ عدنا للبيت وأنا أحوم حولها وأبحث عن حججٍ لأكلّمها أو أداعبها في انتظار أن تتكلم كما قلت أنت. لقد سايرتني وتواصلت معي كعهدي بها قبل وفاة زوجي. حتى حان وقت نومها ولم أرد أن أذكرها به لشدة ما استمتعت بذلك. وتظاهرت أن لدي وصفة أريد تجربتها حتى أزيد من وقتنا معا. ثم طلبت مني أن تساعدني، وبينما نحن نخبز سألتني:
- أمي، هل ستتزوجين؟

لم أكن أتوقع هذا السؤال أو أنها تفكر في مثل هذه المواضيع وأنا أعرف أنها سمعت أمي تحدثني في ذلك مرةً ولكي أسكتها قلت لها أني سأفكر. فأجبتها:
- ولم سأفعل؟ أنا لا أفكر في الزواج .
- وهل ستفكرين؟

فأجبت وأنا أرقب كلماتي:
- وهل تريدينني أن أتزوج؟

فأجابتني بسرعة:
- لا.

فقلت لها:

- ولا أنا أريد. أحب أن نعيش معا أنا وأنت فقط. نحن لا نحتاج أيا كان معنا. أنا أستطيع أن أكون أمك وأباك أيضا. ولن ينقصنا شيء.

فأضافت:

- ولكن جدتي تقول إنه لابد لك من زوج. وإنك لن تستطيعي تربيتي بمفردك. وإنك لا تزالين صغيرةً على الترمل. ما معنى الترمل؟

فقلت لها:

- الأرملة هي التي يتوفى زوجها. وهذه اعتقادات قديمة جدا أنا لا أؤمن بها. أنت عائلتي الآن، ولا أريد زوجا ولا أطفالا آخرين.

فعانقتني، أقسم أنها لم تعانقني بتلك الحرارة سابقا. وبكت وبكيت معها، أحسست أني أضعت طفلتي شهورا ثم لقيتها.
صمتت لحظات وقد بدا لي صوتها كأنها انخرطت في البكاء. فقلت:

- هيا كفى بكاءً، لقد حزنت بما فيه الكفاية طيلة أشهر، والآن يجب أن تفتحي صفحةً جديدة لمستقبلِكما معا.
- أبكي من فرط سعادتي، أشكرك كثيرا.
- لا داعي، أنا لا أحسن التصرف مع الأطفال، كانت ضربة حظ.

فضحكت مرةً أخرى وألحت أن أحكي لها ما حدث مع نورة في السيارة. ففعلت. ثم بدأت تسألني عن نفسي أسئلة كثيرة، وعرفت أني لا أسكن قريبا منها بتاتا وأشياء أخرى كثيرة. والمفاجأة أني تشجعت وسألتها لماذا

قالت أنها تعرفني ذلك اليوم. فقالت إنها تعرف وجهي وإنها رأتني في صور المدرسة وإن زوجها حدثها عني أيضا. قال إني كنت أذكى طلاب المدرسة وأكثرهم نضجا وطيبة ... فقط. لم يحك ما حدث بيننا! وقد كان هذا مطمئنا لي بشدة. تواصلت مكالمتنا قرابة الساعتان. وبعد أن أغلقنا السماعة لم يبق عالقا بأذني سوى عبارة واحدة: "لا أريد زوجا ولا أطفالا آخرين".

نورة

أنا نورة.

عندما قالوا لي يوما أن والدي ذهب إلى السماء، وأن الله يحبه لذلك أخذه إلى جانبه، وأنه سيكون دائما معنا ينظر إلينا. علمت أن أبي ببساطة مات.

كان أبي فضا في أغلب الأحيان وحتى عندما تؤنبه أمي خلسةً عني فإنه يصيح في وجهها أنه يعرف كيف يربيني. لا أحد يقول أني قليلة الأدب غيره. معلماتي يقلن عني دائما أني مثال للبنت المؤدبة. كل ما في الأمر أن أسئلتي كثيرة. وهو يقول أني لا يجب أن أتدخل في حوارات الكبار. بينما تقول لي أمي أنّه يجب أن أطرح عليها أي سؤال يخطر ببالي.

أذكر أنها يوما كانت تتحدث معه عن "رأس مال" فقال لها أن تطلبه من أمها. فقالت له إن هذا المشروع من أجلنا جميعا، ولم ستطلب المال من أمها إن كان هو يملكه. أعتقد أنها كانت مصيبة في ذلك. وفهمت أنها تريد نقودا لأمر ما مهم. فقلت لها: لا تقلقي يا أمي، لدي الكثير من النقود في حصالتي. سأعطيك إياها كلها. كنت أريد أن يكفا عن الشجار. شيء ما في ما قلته أغضب كلاهما. فنظرت إليه وقالت:

- على الأقل يوجد هنا من يهتم.

فغضب أبي كثيرا وصاح في وجهي:

- ألم أقل لك ألا تتدخلي ثانيةً عندما يتحدث الكبار؟

وانتفض نحوي ليمسك بأذني. من حسن حظي أن أمي كانت قريبة إذ وقفت بيننا ومنعته. وصاحت في وجهه بقوة كبيرة جدا. ظننت أنها كانت ستتحول إلى وحش أو بطلة مثل أفلام الكرتون. ولكنها لم تتحول. أعتقد لأن أبي تراجع وغادر المنزل.

في الغد، عاد يتصرف معي كأن شيئا لم يكن.

عموما لم نكن صديقين، ولكنه يصطحبني يوميا إلى المدرسة. ويشتري لي العصير أحيانا في طريق عودتنا. ليكون راضيا عني يجب أن أحافظ على الهدوء طيلة الطريق وأن أكون الأولى دائما في الفصل.

لذلك عندما مات بكيت لأن الأمر أحزن أمي، ولأني أشفقت عليه أن يحاسبه الله على طبعه الحاد معنا. وقد أخبرت الله أني أسامحه وطلبت ألا يعاقبه.
أما الآن، وقد بقيت مع أمي بمفردنا، فالجو دائما صافٍ، وأكثر ما أخشاه أن تتزوج ويأتي أب آخر ليصيح ويعاقبني كل حين.
نصحني العم إسكلبيو أن أصارحها برأيي، وقال إنها تحبني أكثر من أي شيء ولن تؤثر علي أحدا. وفعلت ووعدتني أمي بأنها لن تتزوج.

العم إسكلبيو رجل طيب. فقد طلب من أمي أن تعتبره كأخ لها. وهذا جيد فأنا أعرف أن الإخوة لا يتزوجون. لقد أحببته منذ ذلك اليوم الذي قدم لي نصيحة. وأنا أيضا نصحته أن يشتري كعكة شوكولا. وقد أخبرني أنه يريد أن يشاركني في صنع المجسمات. لأنه سيصنع مستشفى كاملا خاصا به. وعدني أنه سيأتيني بتصميمه على ورق لنصنع له مجسما كرتونيا قبل أن يبنى. وأنه سيشتري لي كل الكرتون والغراء اللازم. سيكون مشروعي لنهاية العام أكبر مشروع في المدرسة. لو كان العم إسكلبيو أبي، لحزنت كثيرا عند موته.

اليوم حصلت أمي على رخصة قيادة، يعني هذا أننا نستطيع أن نستعمل سيارة أبي المركونة منذ مدة طويلة. فقلت لها إننا يجب أن نحتفل. فوافقت. واتفقنا أن يكون الاحتفال مع العم إسكلبيو، لأنه ساعدنا كثيرا عندما كانت أمي دون رخصة.

قررنا أن نتعشى معا في مطعمٍ كبير وفاخر. العاملون فيه يلبسون بدلات كأنهم شخصيات مهمة. ولكنه لم يكن سعيدا. هل سيفتقدني؟

سألته:

- هل ستفتقدني؟

فأجابني:

- كثيرا. ولكننا نستطيع أن نخرج معا عندما تسمح والدتك أليس كذلك؟ كما أن لدينا مشروعا لم نبدأ فيه بعد. لا تنسي. فأنا أعتمد عليك.

اقترحت أمي أن يزورنا كل عطلة نهاية أسبوع، حتى نعمل معا على المشروع. فوافق هو.

أصبحت أذهب إلى المدرسة صحبة أمي، صحيح أنها تقود السيارة ببطء وأن السيارات الأخرى كثيرا ما تطلق أبواقها خلفنا، وهي تتذمر وتنعت أصحابها بـقليلي الأدب. ماعدا ذلك أصبح لدينا وقت أكثر لنتحدث ونضحك كثيرا. كما أنها دخلت معي إلى إدارة المدرسة وتحدثت مع مدرساتي. وقد قلن عني كلاما طيبا. ومن أجل ذلك وعدتني أمي أنها ستأخذني في العطلة إلى منتزه البحيرة. وسنقضي ثلاثة أيام هناك أثناء مهرجان البحيرة. كنت أود لو يأتي العم معنا. ولكن أمي رفضت وقالت أن ذلك غير لائق.

لا أفهم كثيرا معنى ما هو لائق أو لا. فهناك أشياء كثيرة غير لائقة لا تشبه بعضها بتاتا. لذلك أعتقد أنه لا توجد قاعدة عمل أو سلوك لما هو لائق. فقط يجب أن نحفظ هذه الأشياء عن الكبار. حتى أمي لم تحفظ كل شيء إلى حد الآن.

لقد عرفت ذلك البارحة.

لقد زارتنا جدتي، وأمضت معنا طيلة اليوم، وأخبرتها أن العم إسكلبيو يحضر معي مشروعي. ثم أتيتها بالمجسمات المبدئية التي صنعناها. وقلت لها إننا أصبحنا نلتقي كل أسبوع ونعمل معا. وعندما سألتني أين نلتقي، أخبرتها أننا نلتقي هنا في بيتنا. فقطعت الحوار معي والتفتت إلى أمي لتقول:

- أحقا! يأتي إلى هنا وأنتما بمفردكما؟

فأجابت أمي:

- نعم وماذا في ذلك؟

فقالت جدتي بحدة وقد عقدت حاجبيها:

- هذا عيب! كيف تقبلين بذلك؟ أنت أرملة وحيدة. ألا يكفي أن تقبليه في بيتك، ثم تتركيه مع الصغيرة بمفردهما؟ ماذا دهاك؟

ثم سكتت ولم تواصل الكلام. ولكن بدا الغضب على وجهها شديدا. أنا أعرف أنهما واصلتا الحوار لاحقا وأنهما لا تريدان أن أسمع ما يقولان. وقد فكرت في الليل كثيرا لماذا تعتبر جدتي قدوم العام إسكلبيو إلى بيتنا عيبا.

رغم أنه رجل طيب ويعاملنا بكل لطف! لكني لم أفهم ولأنني أعرف أنهما لن تجيباني، اتصلت به من هاتف أمي وطلبت منه أن يفسر لي...

هو يقول لي دائما أن أسأله أي شيء وهو سيجيبني. وهذا ما حصل. لقد قال إن جدتي محقة لأن مجتمعنا لا يقبل علاقة غير معرفة بين رجل وإمرأة لذلك يجب أن يكونا مثلا متزوجين أو إخوة أو زملاء عمل وأن يلتقيا بالتالي في أماكن محددة حسب العلاقة. ولأن العم وأمي لا تربط بينهما سوى علاقة صداقة وهو أمر مستجد في بلادنا فيجب أن يلتقيا في مكان عام أو في حضور الأهل. كما أنه أخبرني أن أشخاصا سيئين موجودين في كل العالم يستهدفون الأطفال ويؤذونهم.

أخبرني أن أمي ليست مخطئة، فهي لا تفعل العيب لأنها تثق فيه كأخ لها وتعتبره فردا من عائلتنا. ولكن الناس لا يعرفون.

منذ ذلك اليوم صرنا نلتقي في مكتبة المدينة لنعمل على مشروعنا وأحيانا في المنتزه عندما يكون الطقس مشمسا. وكنت أعرف السبب لذلك لم أسأل.

ولكن مؤخرا لم نعد نلتقي. وأخبرتني أمي أن عليّ العمل بمفردي فترةً لأن العم مشغول جدا. يومها فكرت أنه لو كان متزوجا بأمي لكان بإمكانه العودة إلينا في الليل على الأقل. ليس لأني لا أستطيع العمل بمفردي، ولكن لأني اشتقت إلى وجوده معنا. يعطيني إحساسا بالطمأنينة مميزا جدا. في

وجوده أشعر أنه بإمكاني فعل أي شيء وقول كل ما يخطر ببالي. أمي كذلك في وجوده تتألق، تصير ضاحكة كأنها زهرة. أحب أمي في كل وقت. وأحبها أكثر في وجود العم. وقررت أن أسألها.

في الليل أتتني أمي بدبي الصغير بعد أن غسلته لينام معي، فقلت لها:

- لا بأس، تستطيعين وضعه على الرف.

استغربت من قولي وسألتني:

- ألا تريدين أن ينام معك بعد الآن؟
- بلى، ولكن اليوم أريدك أنت معي.
- أها!! لن تتعودي على ذلك. البارحة قضيت الليل معك لأنه كان مبللا.
- أرجوك الليلة أيضا. لن أتعود.

فابتسمت وقبلت. قبل أن تنام سألتها:

- ما رأيك أن تتزوجي بالعم إسكلبيو؟

رأيتها تفتح عينيها في الضوء الخافت، ورفعت رأسها وقالت:

- هل قال لك شيئا عن ذلك؟
- كلا.
- إذا؟ من أين أتتك هذه الفكرة؟ ألم نتفق ألا أتزوج وسأبقى دائما لأعتني بك؟

- نعم صحيح. ولكن العم إسكلبيو مختلف، هو أيضا يعتني بي. أنا أقبل أن تتزوجا.

اعتدلت وجلست وجذبتني لأجلس بجانبها، ثم قالت:

- اسمعي حبيبتي؛ الزواج ليس أمرا بسيطا، أو اتفاقا قد نعدل عنه متى أردنا. هو قرار مصيري لنا جميعا، أنا وأنت والعم. لذلك يجب أن نفكر فيه كثيرا. ثم إن عرض الزواج لا نطرحه نحن، بل هو. لا أستطيع أن أقول له تزوجني. الرجل هو من يطلب الزواج. وما أدرانا لعل لديه حبيبة في مكان ما.
- لا ليس لديه حبيبة. هو يحبنا نحن. ثم أنتما تتحدثان كثيرا على الهاتف. لم لا نطرح عليه السؤال؟ فإن قبل تتزوجان. الأمر بسيط.
- ليس كما تعتقدين. نحن صديقان لا أكثر. ستفهمين ذلك قريبا. أنت تكبرين بسرعة. هيا لننم.
- أوفف، طيب قبل أن ننام، هل تريدين أنت الزواج به؟
- لم أفكر في الأمر.
- فكري إذا.
- طيب سأفكر. نامي الآن.

ثم أضافت:

- اسمعي؛ إياك أن تتحدثي في ذلك معه. اتفقنا؟
- لكن!

- لا... لا تفعلي!

حسنا، الأمر معقد أكثر مما تصورت.

المنعرج

كنت مستلقيا على فراشي أحدق في السقف وأفكر. استيقظت في الثانية صباحا لم أستطع النوم مجددا. خيالها يلاحقني في كل مكان وزمان، ابتسامتها الموشاة بغمازتين، حديثها وهي تميل برأسها وتسرح بعينيها الكهرمانية في الفضاء، إصرارها على مواقفها واعتدادها بفتنتها وفطنتها. لطفها وسماحتها. كمّ الدفء الذي تبعثه بوجودها في أي مكان. كم أود لمس خصلات شعرها. أحيانا تكتسحني الرغبة في ضمّها حتى تخترق صدري. فأطمس مشاعري حتى تعكر سواد لياليّ.

هل أحبها؟ هل هو شعوري بذنب تبدل شفقة وأنا تصورته عشقا. هل هو الفراغ العظيم داخلي تهيأ لي حبا؟ هذا يعني أني لو قابلت أي امرأة غيرها كنت تعلّقت بها أيضا.

إن البهجة التي تدخلها على قلبي من قبل أن أراها إلى غاية أن أفارقها بساعات أمر محير. أنا أقضي أياما بعد لقياها وأنا أسترجع تفاصيل لقائنا وحديثنا وحركاتها وكلماتها. حتى أني عشقت الصغيرة نورة لشدة شبهها بأمها. حتى أفكارهما متطابقة. أرغب بشدة أن تكون طفلتي. صرت فخورا بها كأنها من صلبي. كلما رأيت ما تنجزه من تقدم في مجسمات المشروع، يخيل إلي أنها ترث مني اجتهادي وتفاني في عملي.

هل تبادلانني ما أحس يا ترى؟ أم أنها أضغاث خيالي التَوّاق؟ كيف أعرف؟ لو جهرت لها بما أسر قد أخسر كل ما بنيته منذ شهور. قد ترتد عن علاقتها بي. لقد أخبرتني أنها لن تتزوج، فكيف أنقض عهدي لها بأني سأكون مثال الأخ؟

قد ينفجر رأسي بين فينة وأخرى.
قررت أن أقوم بجولة صباحية في المدينة. سيفيدني المشي والشوارع فارغة. لبست ثيابي وخرجت. بقيت أسير بلا وجهة وأتفرج على الواجهات المغلقة. أحسست بحرية وبرود يغمران نفسي. وبدأت أتخلص من ضوضاء أفكاري ومشاعري. حتى لفت انتباهي محل لبيع المخبوزات والقهوة. كان مفتوحا وتنبعث منه رائحة شهية وصوت موسيقى هادئة... اقتربت ونظرت عبر البلور. محل بسيط مضاءٌ قليلا تتوسطه مدفأة عتيقة مشتعلة وفارغ تماما من أي عملاء. أحببت الجو العام للمكان، كانت أركانه تختلج برائحة الدفء والمخبوزات الساخنة. فدخلت وطلبت قهوة وبعض الكعك المحلى. وجلست أستمتع بالأكل والموسيقى. بعد حين رأيت الباب يفتح وسيدة في لباس رياضي تدخل المحل وتلقي التحية كأنها تعرف صاحبه جيدا، فيرحب بها بحرارة ويعرض عليها أن تجلس حيث تشاء إلى حين أن يأتيها بإفطار على ذوقه، لأنه هذه المرة سوف يفاجئها بطعم ستحبه كثيرا.

تبادلت معه بعض كلمات المجاملة ثم جلست مبتسمة في مكان غير بعيد عني وهي تواجهني تماما. فغطست في طعامي حتى لا يقبض علي كعادتي

وأنا أحدق في الناس. هذا لا يمنع أني التقطت تميز هيأتها بشعر مموج إلى مشارف كتفيها تلمع بعض خصلاته بلون أشقر رمادي، كما أن رائحة عطرها عمت المكان، رغم أنها من المفروض كانت تمارس الرياضة.

لم أرفع رأسي ولكني أحسست أنها هي من تحدق بي. لم أجسر على زحزحة نظري عن فنجاني. إلى أن بدأ الأمر يضايقني كأنها تحاصرني وتستفزني. فلم أملك إلا أن أرفع رأسي. ووجدت أنها تنظر إلي بكل ثقة متفحصة في وجهي. بدا وجهها مألوفا للغاية وقبل أن تقفز إلي وعي أي ذكرى، انفرج وجهها عن ضحكة فرحة ونطقت:

- إسكلبيو! هذا أنت!

كلماتها جعلت وجهها مألوفا أكثر، ولكنني ارتبكت لأني لم أتوصل إلى ربطها بشخص أعرفه. فاحمر وجهي وأنا أجيب:

- نعم، اعذريني لم أتعرف عليك سيدتي.

فضحكت ملء وجهها واندفعت نحوي متحمسة حتى خلت أنها ستعانقني فتسمرت أكثر في مكاني وأضفت:

- آسف حقا، أظننا درسنا معا !

وهنا وصلت إلى طاولتي وجذبت الكرسي وجلست ووضعت كفها على ساعدي قائلةً:

- إسكلبيو، لم تتغير كثيرا، هيا انظر إلي جيدا! أنا جوليا!

- جوليا!

ظهرت الخيبة سافرة على وجهها وهي تقول:

- لم تعرفني...

فتداركت :

- بلى، كيف أنساك؟ جوليا درسنا معا في السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية. كنا نجلس معا في الفصل، و ...
- نعم، و...؟
- أخذتني أول مرة إلى مدرسة العزف حيث تعلمت العزف على البيانو. وكنت أنت ذات صوت جميل وتغنين في فرقة المدرسة.
- أحسنت!! ظننت أنك لن تتذكر.

تبسمت إذ تحسن مزاجها وقلت:

- أنا أذكر جوليا الصغيرة. أما جوليا التي أمامي فهي سيدة مختلفة. لا تزالين جميلة على كل حال بل أجمل مما كنت سابقا. لكن شيء ما تغير فيك لم أعرف ماهو...
- معك حق، هي عملية تجميل صغيرة على أنفي، أكيد أنك تذكر حجمه القديم.
- صحيح هذا صحيح، أنفك كان... مميزا.
- قل إنه كان ضخما أعرف ذلك حق المعرفة، ولذلك قررت تغييره. وها أنت تقر أني صرت أجمل.

- حسنا لم يكن بذلك السوء ولكن... (ولم أجد بدا من الاعتراف) كنت أعرفك به.

و انفجرنا ضاحكين.

أمضينا بعد ذلك ساعتين تقريبا في نفس المقهى ونحن نتحدث عما مضى وعما فعلنا لاحقا. كانت صديقة مقربة بعض الشيء. لأني لم أكن ذا علاقات في أية مرحلة من حياتي. ولأنها فرضت علي صداقتها فرضا. وقد أقنعتني يوما أن أذهب معها إلى مدرسة العزف، وأحرجتني أمام مدرس البيانو عندما أخبرته أني أريد تجربة العزف، بينما لم أتحدث في ذلك بتاتا. واعتقد المدرس أني متردد وخجول فتمسك بتعليمي. واضطررت إلى دفع المعاليم للشهر الأول، ولكني أحببت البيانو لاحقا وصرت أدفع المعاليم عن طيب خاطر. غير أني أصررت ألا أشارك في أي حفلة رغم إلحاحها.

سألتني إن كنت لا أزال أعزف. فقلت لها أني أحتفظ بالبيانو كتحفة في بيتي.

أما هي فقد أصبحت مغنية ومشهورة أيضا، وبما أني لا أزال استمع إلى الأغاني القديمة ونادرا ما أفعل أصلا، فإني لم أسمع بها يوما. أخبرتني أنها تخرج فِي أَكْثَرِ الْأَحْيَان في هذا الوقت الباكر من الصباح حتى لا يتعرف إليها أحد. فتحظى ببعض الهدوء في الخارج.

افترقنا على اتفاق أن نلتقي يوما في نفس المكان ونفس التوقيت دون موعد...

عدت إلى بيتي فأخذت حماما سريعا ولبست ثيابي وانطلقت إلى العمل. لم أشعر بأي تعب لأني لم أنم جيدا. بينما مكثت أفكر في صدفة الصباح.

كنت أحب تلك الفتاة كثيرا. لا أذكر كيف كان حبي لها. هل كان صداقةً أم عشق الفتى لفتاة. ولكني أذكر أني كنت أستحسن وجودها معي، إذ كانت تستحوذ على كل اهتمامي مادامت حاضرة. كانت شعلةً من ضجيج وحركات ومفاجآت ومركز اهتمام الجميع من طلاب وأساتذة. كانت ذكية وموهوبة. ولكنها آنذاك آثرت صداقتي أنا. كانت تقول أن عقلها لا يتخاطب مع عقول أقل منه، لذلك هي لا ترضى بأقل مني.

هذا الصباح بحثت عنها على الأنترنت ولم يأخذ مني ذلك وقتا، إذ ظهرت لي مختلف أغانيها ولقاءاتها الصحفية وحفلاتها في بلدان ومسارح عديدة. فوضعت السماعات واستمعت إليها لساعات حتى وأنا أعمل. والظاهر أن لديها جمهورا كبيرا. ولكني لم ألحظ أي تميز في غنائها عما يصل إلى مسامعي من الراديو أو التلفاز أحيانا. يلاّ ... المهم أنها نجحت.

الحقيقة أني استيقظت في الغد في نفس الساعة وكلي رغبة في ملاقاة صديقة الأمس، ولكني فكرت أنها لن تأتي في اليوم الموالي مباشرةً. أعتقد أن النساء عادةً لا يردن إظهار رغبتهن (إن وجدت) علنا، رغم أنها تختلف

عنهن ولكن السنوات الماضية قد تكون غيرت فيها الكثير. على كل حال قررت أن أصبر قليلا. وصبرت ليومين.

أصلا تعدلت ساعتي البيولوجية على ذلك التوقيت، وكان علي أن أرغم نفسي إرغاما على العودة للنوم. وأخيرا استسلمت، فلبست ثيابي واتجهت مباشرةً نحو المقهى البعيد الهادئ. نظرت عبر الواجهة البلورية فرأيت سيدة جالسة وقد أعطت الشارع ظهرها. كان شعرها قصيرا ومجعدا. هل كان شعرها كذلك؟ بلى لكني لا أذكر تماما. اقتربت أكثر ثم دلفت إلى المقهى، وألقيت التحية فالتفتت نحوي ولم تكن هي.

اتجهت نحو طاولتي وأشرت إلى صاحب المقهى الذي ابتسم لي كأنه تذكرني وتقدم نحوي مسرعا. طلبت قهوة وسكت لحظة أفكر في ما أطلب، فأسرع الرجل يقترح علي أن أخذ فطيرة التمر والعسل التي يختص بها، فقبلت. وقبل أن يذهب أضاف:

- لن تندم، حتى فنانتنا جوليا تأتي مخصوصا من أجل هذه الفطيرة.

دق قلبي لسماع اسمها وابتسمت، لقد عرفني.

فكرت لاحقا إن كان علي العودة أم لا. كم يجب أن أذهب من مرة حتى أصادفها؟ ما كان علي مجاراتها في قصة الموعد صدفة. لا تزال على جنونها ولا أزال أسايرها!

وقررت أن أذهب يوميا حتى أجدها. وفي اليوم الرابع وجدتها. فرحت كثيرا لرؤيتي وأمضينا وقتا في الحديث، وأخبرتني أنها تضطر للنوم متأخرا نظرا لمواعيد عملها، لذلك فهي لا تأتي كثيرا. في هذه الحال لن أستطيع رؤيتها متى شئت! فقلت:

- أنا أيضا لا آتي كثيرا، ما رأيك سأعطيك رقمي وعندما تريدين المجيء تستطيعين الاتصال بي. طبعا إن كنت تفضلين الجلوس معي على الاستمتاع بالهدوء بمفردك.

ومن حسن حظي الوفير بلا حد، قطع علينا صاحب المقهى الحديث، إذ أتانا بقارورة ماء طلبتها، وقال لها:

- صديقك يا فنانة أصبح من حرفائنا الأوفياء منذ لقيك هنا.

وقفل جملته بغمزة وابتسامة. فضحكت وعقبت:

- كان يقول نفس الكلام قبل مجيئك بلحظة واحدة.

غادر وتركني أغرق في حرجي، فقالت:

- أعتقد أني أرهقتك بالاستيقاظ باكرا!

فاعترفت:

- نعم فعلت.
- هيا أعطني رقمك وسأعطيك رقمي.

على الأقل أتى الإحراج بنتيجة.
منذ تبادلنا أرقام الهاتف، فتح في حياتي فصل فريد. التقينا كثيرا وتحدثنا عن أيامنا وأحلامنا ومشاريعنا. أخذتها إلى المستشفى الخاص الذي أبنيه، وأخذتني إلى الأستوديو الذي تسجل فيه أغانيها، وعرفتني بفريق عملها. وانغمست معها في أيام من السعادة والمتعة حتى أني نسيت تماما كل كوابيسي السابقة عن خوفي من الفشل ومن افتضاح أمري. كل هذا ولم أفوت يوما موعدي مع سوسن ونورة. رغم أن وجود جوليا حولي وبجانبي بدأ ينسيني ولهي الأول بسوسن.

كنت يوما جالسا أتجاذب الحديث مع ممرضي حين وردني اتصال منها، والظاهر أن سعادتي باتصالها كان واضحا إلى حد بعيد، فقد انتبهت كل حواسه وهو ينظر إلي وأنا أجيب.

- أهلا وسهلا!
- أهلا بك، كيف حالك؟
- طبعا بأحسن حال ما دمت تفضلين سماع صوتي كلما استيقظت.

ضحكت وقالت:

- اسمع، رأيت البارحة حلما رائعا، ويجب أن أحكيه لك.

قمت من مكاني حتى ابتعد عن أذنيه التي وصلت مترا فوق رأسه و اتجهت نحو النافذة وقلت:

- ألهذا الحد؟ هيا أخبريني.

- لا ليس الآن، تعال إلى بيتي. يجب أن نقوم بإختبار حالا.

فزعت من كلماتها، والتفت نحوه خشية أن يكون سمعها، وقلت:

- ماذا هناك؟ حيرتني.

ضحكت كثيرا، ثم هدأت وقالت:

- لا تخف، لن آكلك. سأرسل لك العنوان وسأنتظرك. لا تتأخر!
- حسنا، لكن عندي مواعيد، ليست كثيرة ...

واتجهت نحو جدولي لألقي نظرة، فباغتني ممرضي المنتبه جدا بقوله:

- ثلاثة يا دكتور،

فقلت لها :

- أنتهي منها بعد ساعة ونصف تقريبا. فقبلت:
- اتفقنا، سأنتظرك.

عندما وصلت إلى بيتها. دهشت أنها فيلا ضخمة وفخمة للغاية. ثم قلت في نفسي: وماذا كنت تتوقع؟ أن تسكن مثلك في شقة؟ ولم لا أسكن أنا في فيلا؟ أنا غريب الأطوار حقا.

كيف سأدخل إليها الآن؟ لم يطل تفكيري إذ لمحت بوابا يسرع نحوي ليفتح الباب الحديدي للفيلا، ويستقبلني مبتسما وهو ينظر إلى شعار سيارتي كأنما أخبرته عن قدومي، فقال:

- لابد أنك الدكتور إسكلبيو، تفضل يا سيدي.

دخلت بسيارتي إلى الداخل وركنتها واتجهت نحو الباب الداخلي. ثم لم أضطر إلى الطرق أو الإعلان عن قدومي إذ فتح الباب وظهرت خادمة ترتدي زي عمل خاص، رحبت بي وقادتني إلى صالون غاية في الاتساع فاخر ينطق بذوق رفيع حيث وجدت جوليا في انتظاري وهي تبحث في أوراق. عندما ألقيت التحية التفتت وقفزت نحوي تعانقني بسعادة وهي ترحب بي. ثم أمسكت يدي لأتبعها وأجلستني أمام بيانو. فقلت:

- ماذا؟ ماذا هناك؟

فمدت إلي ورقة تحمل نوتات موسيقية تحمل عنوان "معا أجمل" وقالت:

- هل تتذكر؟

نظرت متفحصا إلى النوتات وبدأت أقرؤها سرا. هل هي مقطوعة قد عزفناها يوما معا؟ لا أذكر عنها شيئا. فقلت:

- لا لا أذكر، ما هذه المقطوعة؟ آه... نعم هذه إحدى أغانيك. نعم تذكرت.
- أحسنت، ولكن ليس هذا ما أريدك أن تتذكره. هل تتذكر العزف على البيانو؟ هل تستطيع أن تلعبها؟

ترددت قليلا ثم قلت:

- أتذكر، لكن لست متأكدا يجب أن أجرب.

- - هيا جرب!
- ألهذا دعوتني؟

اعتدلت في وقفتها وعقدت حاجبيها قائلةً:

- إلى أين وصل خيالك؟
- لا لا أقصد شيئا! لقد حدثتني عن حلم ما، أ ليس كذلك؟

ضحكت وقالت:

- أعرف... كنت أمزح معك، سأحكي لك حلمي لاحقا، بعد أن تعزف لي هذه النوتات.

استدرت نحو لوحة المفاتيح ووضعت الورقة أمامي، بدأت في قراءتها، ثم انطلقت في العزف. كان عزفي بطيئا لأني أقرأ النوتات لأول مرة. استمعت لي ثم طلبت أن أعيد مرة أخرى ثم أخرى. ثم انطلقت في الغناء مع عزفي. كانت تتكئ بمرفقيها على صندوق البيانو، وتنقر بأصابعها وتغني كأنها في نعيم. فواصلت العزف حتى نهاية الأغنية. ولا أنكر أني تسليت وتمتعت بالتجربة أيما متعة.

فقالت لي:

- ما رأيك؟
- رأيي في ماذا؟ تجربة ممتعة وصوتك كما أذكره بديع.
- سأحكي لك حلمي.

- أخيرا! رضيت عني، تفضلي. لو طلبت الجنة لنلتها وحكايتك تتطلب ساعات واختبارات وتجارب. أسمعيني.

تضاحكت وواصلت:

- حلمت أني أغني هذه الأغنية على مسرح ضخم جدا، وأمامي جمهور عريض وكنت ألبس ثوبا ورديا طويلا. ولم يكن معي أي فرقة للعزف. فقط أنا وأنت... على البيانو. لقد قدمنا عرضا مبدعا خلابا، وصفق لنا الجمهور طويلا...

وضعت خدي على قبضتي ورفعت حاجبيّ متعجبا، فتوقفت عن الكلام. فقلت أستحثها:

- ثم؟
- لا يعجبك كلامي! لن أكمل.
- ولم لا، واصلي!
- هذا كل شيء. ما رأيك؟
- اسمعي يا بنيتي... منذ دخلت باب هذا الصالون وأنت تسألين عن رأيي وأنا أخشى ما أخشاه أن أجيبك عن شيء وتقصدين أمرا آخر. ما رأيك أنت لو تتجهين قدما نحو مبتغاك وسوف...
- نقدم هذا الحفل معا
- كنت أعرف أن لديك مفاجأة لي... لا.

- لا؟ لم لا؟ هل يوجد بشر على وجه البسيطة تقدم له الشهرة على طبق من ذهب ويقول لا؟!
- لا جوليا لا، تعرفين منذ زمن بعيد أني لا أحب الأضواء ولا الشهرة ولا حتى أن ينظر إلي شخص ما مطولا. ثم لا تحدقي في هكذا.
- بلى، ستقدم معي العرض. اسمع...
- ستتحدثين لأسابيع ولن أفعل. لم أعد ذلك الفتى الذي تقتادينه بألاعيبك.
- ألاعيبي! حسنا لن أغضب منك، اسمع لا تتسرع فكر ثم أجبني. ما رأيك؟
- لا تسأليني ثانيةً عن رأيي الذي تعرفينه مقدما. ثم لماذا أنا؟ أليس لديك عازف بيانو؟
- بلى، لكن أنت من كان في حلمي. إنها علامة إلهية. أنا اكيدة أن ذلك النجاح الباهر لن يتحقق إلى إذا حققت كل أركان الحلم: أنا وأنت والثوب الوردي.
- هذا سخيف.
- انتبه! لا تقل لي هذه الكلمة. تعرف جيدا أني أكره أن يستخف أحد بعقلي.
- لكن جوليا! ليس لما تقولينه علاقة بالعقل.
- طيب لا تستخف بجنوني إذا.

- جني على راحتك، أما أنا فرجل عقلاني، وأحب الأركان المظلمة حيث لا يلحظني أحد.

أمضينا إثر ذلك شهرين ونحن نتمرن على العرض الذي سنقدمه في يوم عيد الحب. نعم لقد رضخت. اتفقنا أن يكون عبارة عن أنجح أغانيها متتالية ثم نختمها بأغنيتها الجديدة التي كانت تحضر لتصويرها ثم عدلت عن ذلك حتى يكون إطلاقها مخصصا لهذا الحفل. وما إن بدأ الإعلان عنه حتى تهافت الناس على شراء التذاكر وكنت كلما تذكرت يختلج قلبي فزعا.

كان التحضير والتمرن يأخذ تقريبا كل وقتي واضطررت إلى التغيب عن المستشفى طيلة هذه المدة، إلا في حالات الجراحات المبرمجة سابقا في أجندتي. وطبعا لم أفوت موعدا واحدا مع نورة وسوسن. خاصة وأن موعد تقديم مشروع نهاية السنة قد حان. وقد انتظرنا بفارغ الصبر ظهور النتيجة. ولم يخب ظننا إذ تحصلت على أحسن علامة إضافة إلى نتيجة آخر السنة التي توجتها الأولى على كل المدرسة. لم يكن والدها سيفخر بها كما فخرت. حتى أني عرضت عليها أن تختار أي هدية تريد. فاكتفت بتذكيري بوعدي أن أخصص لمُجسّمها مكانا يتوسط مدخل المستشفى وأن يكتب تحته اسمها.

ثم إني قد أخبرتهما عن مشروع الحفلة وطلبت منهما أن تكونا حاضرتين. وأني سأوفر لهما دعوتين خاصتين. أما عن نورة فقد تحمست جدا، وقالت

أنها مفاجأة سعيدة أن تعرف أني عازف بيانو أيضا. إضافة إلى أني أستطيع تعريفها على جوليا. وأما عن سوسن...

اندهشت في البداية، لأنها لم تعرف يوما عن موهبتي هذه، ثم ابتسمت ابتسامة صفراء لم أرها سابقا، وقالت إنها ليست متأكدة من أنها تستطيع الحضور.

هل تَغِير؟ لن أسرح بخيالي بعيدا حتى لا أسقط بشكل شاقُولي على رأسي لاحقا. ألححت عليها أن تستجيب لدعوتي. ثم قلت لها إني خائف من التجربة بل وأرتعش فزعا وسوف يطمئنني حضورها مع نورة وأمي. وأقسم أني رأيت بعد كلامي هذا بريقا في عينيها كأنها دمعة مكبوتة أو فرحة تريد الإفصاح عن شيء. ولكنها لم تقل شيئا. فقط أومأت برأسها علامة القبول.

وجاء اليوم الموعود. كنت أعرف عدد التذاكر المبيعة، لكني اختلست النظر إلى الجمهور قبل العرض فكاد يغمى علي والتف حولي كامل الفريق ينعشونني وكانت جوليا تضحك مني. كأن موتي لا يعنيها. ثم أتت وربتت على رأسي كأني طفل صغير وقالت:

- اطمئن يا صغيري، هذا عادي، أنا أيضا مرتبكة، ولكن سيزول كل ذلك. عندما نبدأ العرض ننغمس في عالمنا أنا وأنت وننسى كل من هم حولنا. هي فقط الدقائق الأولى ثم تعود إلى طبيعتك بل وتسافر إلى عالم من سرور وطرب.

- طيب ارفعي كفك عن رأسي. أمضت المزينة ساعةً وهي ترتبه وتضع فيه ما شاء الله من مساحيق.

جلجلت ضحكتها في المكان وقد اطمأنت أني بخير.
بدأت العزف وأنا لا أرفع رأسي عن لوحة المفاتيح أمامي، ومع بدئها الغناء فكرت أنها صارت مركز اهتمام المسرح بأكمله، فهدأت الفكرة من روعي ورفعت رأسي لأنظر إليها. لم ألاحظ قبل ذلك روعة قوامها في الثوب الزهري. كان طويلا عاري الظهر وقد رفعت شعرها بطريقة ما فبدا تَنَاغُم بين شكله المموج المتعالي وامتداد ظهرها وذيل ثوبها. وقلت في نفسي أن لا أحد يرى هذا التناسق الخلاب غيري. ولأني أمرر أفكاري بطريقة ما، استدارت نحوي لتكشف للجميع في ما كنت سارحا ثم لتلفت انتباههم إلي، إذ اتجهت نحوي وواصلت الغناء وهي تنظر في عيني كأنها توجه الكلام لي!

كانت تقول كلاما عن الحب ناعما يلمس القلب بلين ودفء... ولم أملك إلا أن أسافر معها إلى عالم من النشوة.

عالم النشوة والوسواس

كان عرض عيد الحب محور أحاديث الجرائد والإذاعات والقنوات التلفزية وحتى مواقع التواصل طيلة أسبوعين تقريبا. وقد وردتنا دعوات إلى برامج تلفزية وإذاعية عديدة. غير أني لم ألبِّ أيّا منها، واضطرت جوليا إلى الحضور بمفردها معلّلة غيابي بطبعي الخجول وعدم حبي للأضواء. أما اللافت للإنتباه، أني لم أكن الوحيد الذي رصد التفاتتها نحوي في مقطع مميز في أغنية تفصح فيه عن الحب. وقد طرح الجميع ذلك السؤال الشهير "هل تربط بينكما علاقة حب؟" وحين أنكرت وقالت أن علاقتنا هي صداقة قديمة وتفاهم وطيد، شعرت بخيبة أمل وإرتياح في نفس الوقت.

لم خاب أملي؟ لأني كنت أشعر أن حبي السابق لتلك الفتاة في المدرسة يتجدد، خاصةً أنها كما هي لم تتغير... باذخة الجمال ذكية حاضرة الذهن و أنيقة. رغم أني أكيد أنها حتى وإن كانت تبادلني الشعور فإنها لا يجب أن تفصح عنه أمام كل الأمة. أما ارتياحي فهو من أجل سوسن. في مرحلة ما كانت تستحوذ على كل تفكيري، ولا أعرف إن كنت تجاوزت مرتبة الصديق عندها. وإن كنت كذلك فهل أكسر قلبها الآن بعد أن كسرت عائلتها؟

أعرف أني لم أقل لها شيئا عن مشاعري نحوها آنذاك لأني كنت أخشى أن أخسر علاقتي بها. ولا أعرف إن كانت عدلت عن قرارها بعدم الزواج.

عن أي زواج أتحدث وأنا لا أعرف إن كانت تحبني أصلا. إن تصرفاتي معها واهتمامي الكبير بها وبنورة كفيل بلفت انتباهها وربما يلين قلبها لي.
ماذا فعلت يا الله؟ قتلت زوجها ثم أوحيت لها بحبي ثم انغمست في حب آخر!

قطع أفكاري صوت رنين الهاتف، إنها هي:
- مساء الخير
- أهلا سوسن كيف حالك؟
- بخير وأنت؟
- بخير، عمرك طويل، كنت أفكر في الاتصال بك. (تمنيت أن أقطع لساني حين تفوهت بهذه الكلمات، فأحيانا ينطق دون استشارة عقلي بتاتا)
- حقا؟ ولم؟

مرة أخرى ينطق لساني عن الهوى:
- دون سبب معين، فقط لأطمئن عليكما.
- أنا أيضا أتصل لأطمئن عليك.

وسكتت. لم أعد أعرف ماذا أقول، هاهو لساني قد خرس بعد أن أغرقني ومن حسن الحظ أن نورة كانت بجانبها وسمعتها تطلب أن تكلمني، فقلت:
- هاتها أكلمها.
- عمي إسكلبيو...

- أهلا بمهندستي الصغيرة.

ضحكت وقالت:

- كنا نتفرج على جوليا وقد تكلمت عنك.
- صحيح؟
- نعم، المذيع لا يصدق أنكما صديقان!
- لا تأبهي له.
- طيب، أريدك أن تعرف أني أصدقها.
- هذه حكايات كبار لا أريدك أن تستمعي لها.
- أعرف، فقط أردت أن أقول لك ذلك... لأنك ربما تحب أمي وليس جوليا...

وهنا سمعت سوسن تنادي من بعيد:

- نورة! هاتي الهاتف ولا كلمة أخرى (وضعت السماعة في أذنها) آسفة، لا تهتم، أنت تعرف نورة... لا أدري من أين تأتي بهذه الحكايات... تصبح على خير.

وقفلت الخط.

هل هذا من حسن حظي أو من سوئه؟ أقضي سنوات من الوحدة ثم أحب اثنتين في نفس الوقت. لم قالت نورة ذلك؟ هل هي من تريدني حبيبا لأمها أم أمها من تريد ذلك. كيف أتصرف الآن؟ أتقدم أو أتقهقر؟

لن أستطيع النوم. هيأت مساحة الرقص، وتدربت حتى أنهكت قواي وارتميت على فراشي ونمت وأنا أقطر عرقا.

لم أستطع الاتصال بها في الغد. لم أعرف ما يجب أن أقول. أنا حقا لا أعرف إن كنت أريدها هي أو جوليا. مكثت طيلة الصباح أمسك بالهاتف ثم أعيده إلى جيبي. لم يخرجني من حيرتي سوى ممرضي. قال أن لديه أسئلة تدور في رأسه و لن يجيبه عنها غيري.

- أرجو ألا تكون احدى ألاعيبك، تفضل بالسؤال الأول.

زم شفتيه تعبيرا عن امتعاضه من تعليقي، ثم جلس ووضع رجلا على أخرى، وقال:

- أنت يا دكتور تكسب أموالا طائلة، وكنت أتساءل ماذا تفعل بها فأنت لا تلبس ملابس الأثرياء ولا تركب سياراتهم ولا حتى تسكن فيلاتهم. ثم عرفت الإجابة حين قررت بناء مستشفى خاص...
- لا أصدق
- بل صدق، الجميع حولك يفكرون في ذلك ويتحدثون في ظهرك. أما أنا فأقول لك الحقيقة. أما سؤالي الأول فماذا ستفعل بمداخيل الحفلات؟
- لا حول ولا قوة إلا بالله، سأجيبك. كنت قد طلبت قرضا من البنك وفي انتظار موافقتهم. أما الآن فسأمول المستشفى الخاص بحرِّ مالي. هل اقتنعت؟

- معقول، سؤالي الثاني...
- يا رب عونك.
- أعرف أنك ستقدم لي عرضا مغريا لأعمل معك، وهذا ما سنتحدث فيه لاحقا، أما الآن فما هي الوظيفة التي تقترحها علي؟
- هاها، طبعا معك حق، وظيفتك ستكون مهرج الملك.

اتسعت عيناه وهو لا يصدق سخريتي.

- تسخر مني إذن! لا بأس لن أغضب منك فأنت صديقي وقريبا ستصبح رئيسي في العمل.
- أنا فعلا رئيسك الآن.
- أعرف، لكننا أصدقاء وأنت تريدني بشدة معك في المستشفى الخاص. اعترف!
- ولم؟ حتى تعد مداخيلي؟
- هيا لا تغضب من قولي، أقسم أني أسأل فقط ولا أحسدك.
- هل انتهت أسئلتك؟
- سؤال أخير...
- تفضل.
- كم ستدفع لي؟
- أظن أني سأضاعف مرتبات الموظفين معك حتى يتحملوا وجودك. ألا يكفي؟

- كنت أعتقد أنك ستفرح أن المبادرة جاءت مني، لا تعرف قيمتي حقا. لا بأس ستعرف وستترجاني أن أعمل معك.
- تقصد: تعمل عندي؟
- يا للهوان، يجب أن أذهب.

وغادر مكتبي يدق الأرض بقدميه. ولم يلبث أن فتح الباب ثانية وقال:
- أنت تمزح أليس كذلك؟ ستأخذني معك طبعا.
- طبعا، فأنا لم أقم بحماقة منذ زمن، وقد آن الأوان لأفعل.

ما كدت أنطق هذه الكلمات، حتى دلفت من خلفه جوليا ضاحكة وهي تقول:
- أي حماقة سترتكب؟ أتتظاهر أمامي بالرصانة؟
- أهلا... أهلا، كيف وصلت إلى هنا، هذه مفاجأة.
- تعرف أني أستطيع الوصول إلى حيث أريد.

وتقدمت نحوي لتقبل خدي. ثم جلست وهي تدير نظرها في المكان وأضافت:
- أنا أعرف عنوان عيادتك الخاصة وعنوان المستشفى الذي تبنيه أيضا. ألن تقدم لي شيئا؟

التفت إلى ممرضي الذي كان مشدوه الفاه، لا ينبس ببنت شفة. فانتبه من دهشته مستدركا:

- طبعا طبعا، ماذا تفضلين سيدتي؟ شاي، قهوة، صودا؟
- لا بد أنك عباس!
- يا الله... تعرفين اسمي!! أصلا لم أسمعه في حياتي بهذا اللطف والنعومة.

ضحكت مستحسنة فذْلكتَه، وقالت:

- إذا قهوة يا عباس.
- في لمح البصر.

وغادر وقد علت محياه ابتسامة سعادة لم أرها على وجهه يوما. هذا الحقير، لم يعرض علي قهوة في حياته، ويريد أن أتوسل إليه أن يعمل معي وليس عندي وأن أغريه أيضا بمرتب عظيم.

جلست منتظرا بقية المفاجأة، فقالت:

- كنت سأتصل بك، ولكن كان علي تجربة بعض الفساتين ففضلت أن أمر عليك وأفاجئك.
- تمرين متى شئت. إذا هل تريدين الحديث في موضوع معين؟
- أجل، أردت إخبارك أن سيدة أعمال معروفة ستقيم حفلا، وتريد أن نحييه بعرضنا الأخير.
- لا لا أخطأت، أنا لا أعزف من أجل الأثرياء في قصورهم.
- أنت أخطأت، لا تتسرع! الحفل من أجل جمع تبرعات لتدريس الأطفال الفقراء. وهي تريد أن تجزل العطاء، غير أني أريد أن

يكون عرضنا بسعر رمزي حتى تكون كل مداخيله وتبرعات الحاضرين من أجل الأطفال. لم أخبرها بذلك، قلت أني يجب أن آخذ موافقتك أولا.

- تعرفين أني لن أرفض.
- اتفقنا إذا، سوف أجيبها، ثم نتفق على بعض التحضيرات. سوف أدعو بعضا من أصدقائي الذين يهتمون بالتبرع، وأنت أيضا تستطيع دعوة أصدقائك الأطباء. يجب أن ينجح الحفل وأن يدخل مردودا معتبرا.
- ولم لا... سأفعل.

دخل ممرضي وفي يده طبق القهوة، وأسرع يقدمها لها، فقلت أريد إرباكه:

- وأنا؟ ألا أستحق قهوة؟
- اعتقدت أنك لا تشرب إلا الماء طيلة اليوم.
- لأنني لا أجد من يعرض علي القهوة بهذه الحفاوة.
- أنت تأمر أمرا يا دكتور، دقائق وتأتيك ألذ قهوة.

وغادر ولم يعد. أنا لا أمزح، حقا لم يعد. على كل حال لم تتأخر جوليا في مكتبي إذ غادرت هي أيضا بعد دقائق. وعندما عاد السيد عباس إلى مكتبي بعد ساعة أو أكثر. سألته:

- هل حقا تجاهلتني ولم تأتني بقهوة هذا الصباح؟

- امم، لن أكذب عليك. وجدت إحدى الممرضات تقدم حلويات بمناسبة نجاح ولدها، فنسيت.
- مجهود تشكر عليه، حسنا سأتذكر ذلك عندما أقدم لك عرض العمل الجديد.
- هيا، لا تكن غضوبا، هذا يحدث! ألا تنسى أنت؟

سكت ولم أجبه، وتظاهرت بالعمل. فبقي واقفا مترددا لأنه لا يعرف إن كنت غاضبا حقا أم أني أمزح. وعندما طال السكوت قال:

- أنا آسف. حقا لقد نسيت. سآتيك بقهوة كل صباح إذا أردت. هيا لا تغضب.
- ليس كفاية.
- دخلنا مرحلة الابتزاز.
- إذهب إذا ما دمت لا تأبه.
- لا... لا أنا فقط أطيب خاطرك بالدعابة. قل لي ماذا تريد؟
- جوليا تريد أن نقدم عرضنا في حفلة خيرية لجمع تبرعات لتدريس الأطفال الفقراء.
- أتعرف يا دكتور أني كنت تلميذا فقيرا في صغري؟ ولولا ذلك لأصبحت الآن دكتورا مثلك تماما.
- كف عن اللغو. هي تريدني أن أدعو "أصدقائي الأطباء" ليتبرعوا.
- إذا؟
- أي أصدقاء؟ ليس لدي صديق غيرك هنا.

- أخيرا اعترفت.
- عباس، ستذهب إليهم واحدا واحدا، وتعطيهم دعوات من عندي وتتحدث على لساني. وتلح أيضا في دعوتك على لساني. أظن أن لديك مواهبك الخاصة في مأمورية كهذه. أليس كذلك؟
- وتأخذني معك إلى الحفل.
- أمري إلى الله، سآخذك.
- اتفقنا

وهكذا نجح في دعوة اثني عشرة طبيبا وطبيبة إلى الحفل. يا له من ماكر. وبراعته تجاوزت ذلك، إذ أقنعني أنه يجب عليّ أن أشتري بدلة جديدة وحذاءً وعطرا للحفل وأن يكون كل ذلك من ماركات عالمية، لأن حفلا كهذا سيكون فاخرا جدا ولابد أن أكون في مستوى الحضور. وعندما اصطحبني لكي أشتري لوازم الحفل أقنعني أنه كرفيق لي يجب أن يكون في مستوى أناقتي، لذا يجب أن أشتري له بدلة وحذاءً. واشترينا ما أراد.

وأتى يوم الحفل. وقد انبهرت حقا بالبهرج والثراء الواضح على كل الحاضرين وحتى على زملائي. إضافة إلى أناقة المكان ومظاهر الرفاهية التي تطغى على أدق تفاصيل الديكور. وحمدت الله أني سمعت كلامه.

أما جوليا فقد كانت أيقونة الحفل بلا منازع. جمالها الأخاذ، ثوبها المترف، أناقة جواهرها. ولن أتحدث عن عطرها لأنه سلب القلوب حيث مرت. والأعظم أنها محاطة بالعشاق من أثرياء القوم. لم أر امرأة تجامل من هذا

العدد من الرجال في نفس الوقت. هذا يقبل يدها وهذا يطلب موعدا، وهذا يذكرها بوعده أن ينتج لها ما تشاء ومتى تشاء... بدلاتهم، سياراتهم ساعاتهم، المنافسة أقوى مما أتصورا!

لكنها لم تكن ودودة بصفة مبالغة، كانت تجاملهم وتبتسم وتنصرف. بدت واثقة، نفيسة، وبعيدة المنال إلى أقصى حد.

في ذلك اليوم قررت أن أتغير. لم أبْدُ عاديا وأنا ثري؟ الناس ينظرون إلى المظاهر ويحترمون من يبدو مترفا. كما أنها يجب أن تعرف أني لست أقل من أي منهم. لقد أعجبت يومها بمظهري، وقالت إني أبدو فاتنا. لم أسمع هذه الكلمة تقال لي أو عني طيلة حياتي. في ختام الحفل رقص كل الحاضرين أزواجا وفرادى. ودعتني جوليا إلى الرقص معها. وقد أبهرتها بخفة وتناسق حركاتي حتى أنها بدت في غاية الاستمتاع، وقالت إنها لم تتوقع أن أبرع أنا بالذات في الرقص. ولم تكن الوحيدة، فقد صورتنا الصحافة ونزل الفيديو على الأنترنت قبل حتى أن أصل إلى بيتي...

لم أكن أعرف عن موضوع الفيديو شيئا، لذلك عندما دعتني إلى العشاء بمفردنا في بيتها بعد الحفل، قبلت وسحابات الغبطة تسافر بي إلى جنان الهناء والنعيم. غادرت الحفل صحبتها تاركا ممرضي والناس والعالم خلفي لا أرى أمامي سوى ساعات المسرة التي سأعيشها بعد حين. هناك أكلنا وشربنا ورقصنا وتحدثنا طويلا، حتى صح قلبي وإرادتي أن أصارحها بمشاعري. كنت كالمنتشي قادرا على البوح بكل ما في صدري. وعندما

هممت رن هاتفي فامتعضت وأردت أن أسكته، ولكنها طلبت مني أن أجيب لأنها ستغيب عني لحظات لتأتي بشيء ما.

كان عباس، فأجبته باقتضاب:

- ماذا هناك؟
- لا يعجبني ردك، لكن لابأس. هل رأيت الفيديو؟
- أي فيديو؟
- فيديو رائع لك وأنت ترقص مع الفنانة. يجب أن تقرأ التعاليق... الجميع يجزم أن بينكما شعلة حب وشغف. أنتما شغل مواقع التواصل الشاغل اليوم...
- ماذا؟ فيديو؟ تعاليق؟

سوسن... أكيد رأت الفيديو... ونورة أيضا!

قفلت الخط ودارت بي الدنيا. كأن يدا عملاقة التقطتني من فوق السحاب وألقت بي بعنف إلى أرض واقعي فهشمت عظامي. ودخلت جوليا وبيدها أوراق. نظرت إلى وجهي وهتفت:

- أنت بخير؟ ماذا هناك؟

رفعت رأسي إليها ونظرت مليا إلى الفتاة التي أمامي. هل هي من أريد حقا؟ كنت واثقا من ذلك منذ دقائق، فلم أجزع الآن من أجل سوسن؟ ليت سيدة البيت العتيق تظهر ثانيةً وتساعدني.

- إسكلبيو، ما بك؟ تكلم!

- سأتكلم، سأقول كل شيء. هل تريدين الاستماع للحكاية؟
- حكاية ماذا؟
- حكايتي، يجب أن تعرفيها قبل أن نخطو أي خطوة أخرى.

وضعت الأوراق على الطاولة وأتت وجلست بجانبي وقد استدارت نحوي بكل جسدها.

القصاصة

إنه اليوم الموعود. انتظرته وجلا متشوقا طيلة سبع سنوات. اليوم هو يوم ميلادي الثامن عشر. استيقظت على قبلات أمي تغمر وجهي وصوتها الحاني يهمس بالغناء: عيد ميلاد سعيد يا حبي، عيد ميلاد سعيد يا قلبي، عيد ميلاد سعيد يا كسولي، هيا انهض قد جاء الصباح!

ابتسمت وقلت لها:

- إنه عيد ميلادي الثامن عشر.

ابتسمت بدورها وأجابت:

- سنرى، (ومسحت بكفها على رأسي) سأكون بجانبك دائما.
- لقد انتظرت هذا اليوم بفارغ الصبر. ولا أخفيك أني أتوتر كلما تذكرت أني سأفتح القصاصة اليوم.
- لا تفكر في شيء. يجب أن يكون ذهنك صاف حتى تقرر برويّة ما تريد.

فتحت درج مكتبي والتقطت الورقة المطوية. فتحتها فلم تعاند كعادتها. ونظرت داخلها مباشرة اختفى كل ما يحيط بي من غرفة وأثاث وحتى أمي، ووجدت نفسي كأني أطير في علياء وأنظر تحتي إلى الناس والمدن

والعالم. رأيت مسرحا عظيما وفتاةً فاتنةً تغني بصوت نقي، وأنا بجانبها أعزف على البيانو لحنا ناعما، والناس يصفقون بحماس من أجلنا. كان مظهري غريبا على ما اعتدته في نفسي. شاذا جريئا وواثقا. ألبس ثيابا باهظة وأكسسوارات ثمينة. رأيتني أحتضن طفلة صغيرة وأداعبها وأطعمها. ورأيت نفسي في بيت وحيد وقد ابيض شعري أهيم بين أركانه المظلمة لا أبحث عن شيء وكان الأسى مفصلا على تقاسيم وجهي. ثم كثرت الأحداث أمامي، عرفت منها وجوها وحفظت منها ما فهمته ونسيت كل الباقي. وعاد إلي وعيي وصوت أمي يناديني خافتا:

- إسكلبيو... أنت بخير؟

فتحت عيناي ووجدت أني أستلقي على فراشي وأمي تمسك بيدي غير خائفة في انتظار صحوتي. بقيت وقتا أسترجع تلك الأحداث محاولا ألا أنساها دون أن أنطق حرفا. ثم إلتفت إلى أمي وقلت:

- سأسعد زمنا، ثم أعيش وحيدا وأحزن باقي حياتي.

عبست أمي قليلا ثم استدركت:

- حدثني ماذا رأيت؟
- سأصبح عازف بيانو... ولكني لن أكون سعيدا بذلك... رأيت طفلة صغيرة كأنها طفلتي، ولكني لم أر زوجة... ثم صرت عجوزا وحيدا وكئيبا.

- عازف بيانو! كنت أعتقد أنك تتخذ العزف كهواية، هل تحب العزف إلى هذا الحد؟
- لا أريد أن أصبح عازفا!
- هذا ما كنت أعتقد. ظننت أيضا أنك تريد أن تكون جراحا.
- ربما لن أُقبل في كلية الطب! أو سأفشل في دراستي كجراح؟ شيء ما سيُبعدني عن حلمي.
- لا تحزن! لديك الفرصة لتحقق حلمك.
- أجل، هو كذلك.

التقطت القلم وهممت بالكتابة، لكني لم أعرف ماذا سأكتب بالضبط. فنظرت إليها علها تساعدني، فقالت:
- أنت من سيكتب ما يريد. سأتركك على راحتك.

وكتبت:

"*سأصبح طبيبا جراحا ناجحا، وسأتزوج فتاةً أحبها ونكون عائلةً لا تتفكك.*"

بقيت جوليا على صمتها برهةً ثم سألتني:
- هل أن الفتاة التي رأيتها على المسرح هي أنا؟
- نعم
- ومن هي الطفلة التي كنت تلاعبها؟

- ربيبة أمي.
- ليست ابنة عدوك الذي مات، أو تعتقد أنك قتلته؟
- نعم. ليست هي. منطقيا إن كنت عازف بيانو فإني لن أجري لوالدها العملية ولن ألتقي بها ولا بأمها.
- هل أحببتها أم أن شعورك بالذنب نحوها هيأ لك أن من واجبك أن تهتم بها؟
- سوسن؟ لا أعرف.
- حاول أن تفكر بصوت مرتفع.
- طيلة أشهر كانت تستحوذ على كل تفكيري، وكنت أتردد في مجاهرتها لأني فكرت انني ربما أحن عليها من منطلق شعوري بالذنب. وليس ما أشعر به نحوها حب حقيقي. بقيت على ترددي حتى ظهرت أنت. فتحول كل اهتمامي و شغفي إليك. اليوم كنت سأحدثك بمشاعري وأسأل إن كنت تبادلينني الوجد. ولكن معرفتي بأمر الفيديو وأن سوسن قد تكون رأته، هز كياني وحيرني.
- لم تجزم إلى حد الآن باختيارك. هل تحبني أنا أم هي؟

انتظَرَت أن أجيب، ولم أجب.

- - أتريد أن تعرف رأيي؟
- - أجل...
- إن ارتبطت بسوسن فأنت تصلح أخطاء بأخطاء. خطؤك الأول الذي تريد إصلاحه هو شعورك بالذنب في أمر لا يد لك فيه فهذا قدرك.

قدرك أن تفشل يوما، وقدر الرجل أن يموت في ذلك اليوم. أما موته تحت جراحة تجريها أنت فهذه حكمة لا يعلمها إلا الخالق.

خطؤك الثاني هو شكك في نفسك وفي قدرتك ثم الندم على اختيارك هذا الطريق هو جحود بالنعمة التي منّ بها الله عليك، وهو بداية فقدانك حقك في الهدية التي قدمتها لك سيدة البيت القديم، وتمهيد لفشل ذريع في عملك. فهي اشترطت عليك الامتنان وليس الجحود أليس كذلك؟

- نعم...
- أما الأخطاء التي أنت قادم على اقترافها فهي أولا الارتباط بامرأة وطفلة وعائلة بأكملها برباط الشعور بالذنب والكذب. وهو ما سيعكّر صفو حياتكما ما دمت تراهما كل صباح. والخطأ الأخير هو التخلي عن الحب الحقيقي الذي طالما كنت تتمناه وتنتظره. وهو ما لن تتخطاه وستتذكره كلما نشب خلاف بينك وبين سوسن.
- إذن سأخبر سوسن بكل شيء.
- توقعت ردا آخر. لا بأس... اذهب، وسوف تتهمك بقتله. وحتى إن لم تفعل فستفكر في ذلك وتشك فيك دائما وأبدا.
- حتى وإن كرهتني، فسأرضى. لا أستطيع العيش بهذا السر وهو يثقل كاهلي.
- لا تتسرع، تمهل أياما حتى تكون متأكدا من قرارك.
- كفاني ما انتظرت وكفاني خوفا وترددا.

واندفعت مغادرا أسارع الخطى، وما كدت أتجاوز عتبة الفيلا حتى ركضت نحو سيارتي، وانطلقت نحو بيت سوسن. في الطريق اتصلت بها، فلم تجب. فأعدت الاتصال وألححت حتى أجابت:

- نعم...
- سوسن، أنا قادم إليك. أعرف أنك لا تريدين استقبالي في بيتك لكن يجب أن أتحدث إليك الآن.
- آسفة، أنا متعبة، ونورة نائمة لا أريد أن نزعجها.
- أرجوك... يجب أن أتحدث إليك.

سكتت قليلا، فخفت أن تقطع الاتصال، فقلت:

- سأكون هناك بعد 15 دقيقة، ولن أغادر حتى تستمعي إلي.
- حسنا، حاول ألا ينتبه إليك أحد.
- اتفقنا...

جلستُ على الكنبة وأنا ألهث من فرط الانفعال والسرعة. وبقيت هي واقفة أمامي واجمة تنتظر ما سأقول. نبرة كلامها على الهاتف وإجابتها وطريقة استقبالها لي تجزم أنها رأت الفيديو وقرأت التعاليق كذلك. وتؤكد لي ما فكرت فيه يوما: هي تحبني أو على الأقل تجاوزت عندها مرتبة الأخ أو الصديق وهي تغار عليّ.

- سوسن، يجب أن نتحدث. يجب أن تعرفي عني أشياء كثيرة قبل أن تتخذي موقفا تجاهي.

- ألم يكن باستطاعتك أن تنتظر الصباح لتخبرني بهذا الحديث؟
- أرجوك، أنا متوتر جدا. وفي هذه اللحظة أستطيع أن أكون شفافا وواضحا للغاية، فلا تؤجلي من فضلك.
- أستمع لك
- هلا جلست؟

تضايقت من إصراري، وجلست.

- زوجك رحمه الله، لم يكن صديقي.
- لكنه قال ذلك بنفسه وأنت وافقت على قوله.
- كان ألد أعدائي. تنمّر علي طيلة سنوات. جعل من أيام دراستي كابوسا. طالما لاحقني وزمرته في أروقة المدرسة حتى يضايقوني ويضحكوا من هدوئي وقلة حيلتي. كنت فتى وحيدا لا أصدقاء ولا أنشطة ولا يسمع أحد صوتي في غير ساعات الفصل. لم أكن أؤذي أحدا ولا أكلم أحدا، كل ما أفعله هو متابعة الدرس والإجابة إذا ما سألني أحد. وقد أقلقه طبعي أو ربما استفزه بيد أنه كان عكسي تماما. وقد سهل عليه سكوتي التنمر علي، في البداية ليضحك هو وأصدقائه، ثم ليفرغ فيّ غضبه من أي شيء: تأنيب أستاذ، خسارة في مباراة، علامة سيئة. قطّع كتبي، وسّخ ثيابي، تعمّد دفعي وإسقاطي في الوحل في جو ممطر، سرق ملفاتي، ضربني...

توقّفْت لحظات أسترجع أنفاسي، ذلك أن الذكريات هيجت غضبي وحنقي وحزني. ثم عدت للكلام:

- تحملت كل أفعاله ربما خوفا أو لعدم افتعال مشاكل، لم أعد أذكر لم كنت أتحاشاه لكن أذكر أن أهم أسبابي كان ألا تعلم أمي. كنت أشفق عليها من حبها وخوفها علي ومن مسؤولياتها الكثيرة، فوالدي توفى وأنا رضيع. حتى جاء اليوم الذي أصبحت لي فيه صديقة. فتاة مختلفة ومرغوبة من كل الأولاد. لا أعرف إن كان يريدها ولكنه استكثرها على فاشل مثلي. لم يكن يعرف أن ما بيني وبينها صداقة نقية وحب مشترك للفن والبيانو. وهددني إن لم أبتعد عنها فإنه لن يرحمني. ولم أفعل. فتتبعني ورفقته مساء بعد المدرسة. حل الظلام، وكنت خائفا ولا أستطيع توقع ما ينوون فعله، فهربت وتبعوني، حتى حاصروني أمام منزل مهجور فقرروا حبسي فيه. قاومت وغلبوني. ألقوني داخله وأغلقوا الباب، ثم هربوا...

عدت ألتقط أنفاسي كأني عدت ولدا وسجنت داخل التجربة ثانية. هاجت مشاعري واحمر وجهي وصرت أتعرق، حتى أني لم أستطع منع دمعة ساخنة كاللَّظى من تجاوز بوابة جفني. أسرعت بمسحها وعدت للكلام:

- منذ ذلك اليوم قررت مواجهته. لأمر ما أجهل كنهه تراجع أمامي. وصار يتجنب ملاقاتي أو حتى التواجد في نفس المكان معي، باستثناء قاعة الدرس حيث كان يجلس على أبعد مقعد عني. بعد

حين مللته وتجاوزته ولكنني كرهت دروس البيانو والفتاة رفيقتي. بدا لي أن كل ذلك لا يليق بي أو ربما مدعاة للمشاكل.

مرت سنوات، ولم أنس ما حدث. لم أغفر له يوما ما فعله، ولكم تمنيت لو تعود بي السنوات فآخذ حقي منه. ولكن كل ذلك فات. إلى أن لقيته ذات صباح مضرجا بالدماء، ينظر إلي بعين الرجاء ويطلب مني أن أنقذه. قال: لا تكن مثلي! لا أعرف إن كنتُ لقيته في غير موضع وطلب أن أنقذه إن كنت سأفعل، أعتقد أحيانا لو لقيته على قارعة الطريق ولم أكن طبيبا كنت تركته يموت. ولكني طبيب، وهو مصاب على طاولة الجراحة خاصتي. لم أحنث في قسمي وحاولت أقصى جهدي وعلمي أن أنقذه. ولكنه مات. أتعرفين أن أول مريض يموت بين يديّ كان مراد... زوجك؟

وسكت. لم أجد قولا آخر أو كلمات أخرى أضيفها. وصلت زوبعة المشاعر داخلي إلى سمائها، وبدأت أشعر بدوار وعجزت عن قول أو فعل شيء. كل ما كنت أستطيع وأقاوم من أجله هو انتظار ردها. وأخيرا تكلمت:

- أصدّقك، أتعرف؟ لو أنه حكى لي ما حصل بينكما كنت شككت فيك. (صمتت برهة ثم أكملت) ولو سمعت منك في بداية معرفتنا ببعض، كنت شككت فيك أيضا، خاصة وأنك عرضت مساعدتنا وكنت سندا لوقت طويل. كنت سأفكر أنك ندمت وتكفر عن ذنبك بالاهتمام بنا. ولكن اليوم... أنا أعرفك. أنت يا اسكلبيو أنقى

وأطيب من أن تضر أيا كان مهما كان مسيئا إليك. أأقول لك شيئا؟ حتى لو لقيته كما قلت على قارعة الطريق كنت ستنقذه.

فجأةً عاد لساني إلى عادته القديمة ونطق عن الهوى:

- هل تحبينني؟

صدمها سؤالي فاعتدلت أو تراجعت بظهرها وبدا التردد جليا في عينيها التي بدأت تدور كأنما تبحث عن مخرج. ثم أجابت:

- لا أعرف، هل تحبني أنت؟
- لا أعرف...
- هل تحبها؟
- لا أعرف...
- فهمت. هيا تأخر الوقت ويجب أن ترحل.
- ماذا فهمت؟
- سنتحدث لاحقا، أنت متوتر، وأنا متعبة.
- بل خاب أملك.
- ليس كما تعتقد... هيا ارحل...
- ليس بعد... قولي ماذا فهمت أولا.

تأففت ندما على ما قالته وطأطأت رأسها. بدت على غير استعداد لتتحدث في الأمر. هي متعبة حقا وأنا كسرت خاطرها واستنفذت طاقتها. ملت نحوها ووضعت كفي على كتفها وقلت:

- أنا آسف، تصبحين على خير.

أومأت برأسها أنها موافقة على وضع حد لحوارنا. فهممت بالمغادرة وأنا أتردد بين الاعتذار أو التبرير أو الاكتفاء. لمحت على قسمات وجهها رعشةً كأنما تنوي أن تقول شيئا، يجب أن أتشبث، فوقفت لحظة أفكر في ما أقول، فبادرت:

- ربما مال قلبي يوما إليك. قد فكرت فيك واستطبت وجودك قربنا ومعنا. لكن اليوم أبصرت أن إرادة النفس وميلها هو وحي خيال. وحتى تعرف أنت أيضا سأخبرك: أنت تحبها، وما خلته شعورا نحوي ليس إلا شفقة وشعورا بالذنب. لذا فلن أرضى بك يوما رفيق درب أو أبا لابنتي.

لم أستطع أن أجادلها. لست مقتنعا بما قالت ولا أنا متأكد من مشاعري نحوها أو نحو جوليا. لذلك لم أنبس بحرف. استدرت نحو الباب وغادرت.

فارقتها محتارا بين الشفقة على ما أصابها مني وبين راحتي من السر الذي أثقل كاهلي.

خط الأقدار

ذلك المساء لم أستطع صبرا عن أمي. من غيرها أُسرّه بما يضني صدري وينهك عقلي؟ فتحت الباب لأجدها في غرفة الجلوس تجلس أمام التلفاز وبين ساقيها تجلس ربيبتها تمشط شعرها وتتسامران. استغربتا من قدومي في تلك الساعة خاصة أن تقاسيم وجهي لا تبشر بخير. فقالت:

- حبيبي! هل أنت بخير؟
- مساء الخير.
- هل أنت بخير؟

رميت بجسدي المتعب على أريكة، وأغمضت عيني وأجبت:

- ليس تماما، أنا متعب وأردت أن أستأنس بكما الليلة، علني أجد السلام.

فتدخلت الشابة التي كانت تتابع:

- بل قل تريد أمك! حسنا، سأتخلى لك عنها الليلة. لكن لا تنس مكافأتي لاحقا.

ابتسمت لدعابتها رغما عني وقلت:

- حاضر آنسة ريم، اطلبي ما شئت. من يستطيع مجادلتك في هذا البيت؟

قفزت ضاحكة ضحكة انتصار كمن أبرم اتفاقا مجزيا. أخذت معها هاتفها وبعض الأغراض وصحن الكعك وانطلقت نحو غرفتها هاتفةً:

- زرنا مرارا أخي العزيز.

فتحت لي أمي ذراعيها تدعوني، فلبيت. جلست حذوها وعانقتها. ثم انسحبت لأستلقي وأضع رأسي على حجرها. لم تتكلم. كانت تنتظر أن أبادر بالحديث. بقيتُ زمنا أستمتع بحركات أصابعها تتخلل شعري، وتجذب من رأسي الحزن والكدر، حتى هدأ فؤادي وعمت السكينة روحي. فقلت:

- أتعرفين؟ كنت أعتقد أني يوم أحب، سأكون على يقين وثبات. تماما كما كنت وأبي. أنتما الصورة الوحيدة التي أعرفها للحب.
- إن لم تكن واثقا، فهو ليس حبا.
- كنت واثقا، ثم تزعزعت.
- وهي؟
- هما.

سمعت ضحكة مكتومة، وخرجت كلماتها عن فم مبتسم وإن كنت لا أراه فأنا لا أخطئ الصوت:

- اثنتان! تحب اثنتين؟ أنتم الرجال غريبو الأطوار. كنت أعتقد أني أعرفك كخطوط كفي، وها أنت تدهشني بمكنوناتٍ وأسرار نفسك

التي لم يخطر في بالي أنك قد تشابه بها بقية الرجال. إذا أنت لا تعرف من تحب منهما.

- نعم.
- وتريد رأيي؟
- نعم.
- اصبر إذا.
- وكيف ذلك؟
- اصبر على كليهما. لا تلتزم ولا تلزم أيا منهما. بعد حين سيخبرك قلبك أنه بحاجة لإحداهما بالذات. أو ربما لا أحد منهما.
- لا أحد!
- أجل. إن الرغبة والشعلة الأولى قد توقعك في الخطأ. فتظلم نفسك وتظلمها أيضا.

أقنعني كلامها وطمأنني. فاستسلمت للنوم على ذلك الوضع وذلك القرار. واستيقظت صباحا كأنما نمت أسبوعا: مرتاح البال، هادئ النفس. وجدتني على الكنبة أتوسد مخدة، يغطيني لحافٌ يعبق برائحة بيت أمي. أمضيت كل الصباح هناك. شربنا القهوة وأكلت كثيرا. تحدثنا في ما يهمنا ولا يهمنا. ضحكت مع المحتالة الصغيرة حتى انقطع نفسي، وسلبتني كل ما في محفظتي من أوراق مالية. ثم رحلت عائدا إلى حياتي اليومية وكلي تفاؤل.

أمضيت شهورا صحبة جوليا أعيش معها يوميات الفن والعزف والشهرة والأضواء. مالت بشدة إلى حسي الفني وصارت تستشيرني في كل خطواتها. وسطع اسمي عاليا في فترة قياسية. وصارت تؤمن وتخبر الجميع أني تميمة الحظ التي أخرجتها من صفوف المشاهير إلى مرتبة نجمة المشاهير. سعت الصحافة بكل عزم وإصرار لمقابلتي أو تسجيل أي محادثة معي. ولكن طبعي الخجول منعني من القبول. وظلت الأضواء ضريبة مفروضة علي مقابل استمتاعي بالعزف وإثارة عاطفة الجمال.

في هذه الفترة انقطعت صلتي واتصالاتي بسوسن. ولكني لم أقطع اتصالاتي بنورة يوما واحدا. ما شأنها هي بما نبنيه ونحطّمه نحن الكبار؟ كانت تعرف أن شيئا ما قطع صداقتي مع أمها، لذلك لم تلح على جمعنا. حتى أني كنت أصطحبها أحيانا في فسح أو للمدرسة أو لشراء حاجيات بمفردنا. أحيانا أرى سوسن تخرجها إلى باب العمارة، فتبتسم لي أو ترمي إلي سلاما باردا ثم تختفي خلف الباب. أما إذ تحدثنا عنها فإن اسمها يمر مرور الكرام دون أي تعاليق.

هذا التباعد بيني وإياها فسح لي المجال لأتقارب أكثر مع الصغيرة التي صارت مع كل يوم تحتل مكانة في قلبي أكبر. لا أعرف لو أني أنجبت طفلة هل كنت أحبها أكثر من هذا الحب. باتت شغلي الشاغل والأولوية الأولى في حياتي لا يسبقها فن ولا مشفى ولا حتى امرأة. شاركتها حكاياتي ويومياتي ومشاريعي وحتى مخاوفي. طبعا في حدود فهمها

وسنها. ألهمتني صفاء الذهن حتى أتروى و أفكر وأقسم أولوياتي ومشاغلي:

أولا تابعت عملي كطبيب، ثم نظمت أمسياتي وأوقات فراغي لأمتهن العزف وأستمتع به. وأخيرا جعلت نهاية الأسبوع لنورة. وبما أنها العطلة الصيفية، صرنا نذهب إلى البحر ونمارس الرياضة ونزور مدن الألعاب معا. كنت آخذها حتى لشراء بدلات وملابس جديدة وآخذ رأيها أيضا. بالتوازي كنت أعمل مع جوليا على عرض جديد تشاركنا فيه عازفات على الكمان بحيث يميل الأسلوب الفني نحو الأوبرا ولكن بإيقاعات مستحدثة. ورغم أني كنت صاحب الفكرة والاقتراح، وأني كنت أعمل معها جاهدا ليخرج العمل في أبهى صورة، إلا أن جوليا كانت لا تضيع فرصة لتلح وتعيد أن أخصص لعملنا نهايات الأسابيع حتى نسرع في وتيرة التمرن والتحضير. وتحاول التلميح أحيانا أن حفاظي على علاقتي بنورة ليس إلا محاولة يائسة و رَثّة لعدم غلق باب الصلح مع سوسن. أحيانا كنت أضحك منها، وأحيانا أجيبها بجدية أن حبي لنورة لا علاقة له بأمها. ولكن مع إلحاحها اضطررت يوما أن أتظاهر بالغضب وهدّدتُ بالتخلي كليا عن العمل معها وهو ما جعلها تتنازل عن مضايقتها لي. في ما عدا ذلك فإننا كنا مقربين جدا وكثيرا ما كانت تجاهر بحبها لي وبأنني كل ما كانت تأمَلُه من رجل في حياتها.

لا أنكر أن أمام كلماتها المنمقة وطُرقها الطريفة في التعبير عن حبها وولعها، فإن كلماتي الخجولة الشحيحة، لا تكاد تلاحَظ. وقد يعتقد الرائي أنها ولهت بحبي وأني أتعزز ولا استجيب لها. وهو ما تتطرق إليه مرارا. إذ تتبرم من برودي وتقول أنها لم تتصور أنها تستجدي الحب يوما من أحد. هي المرأة الفاتنة الفطنة التي يشار إليها بالبنان. فأسعى إلى مرضاتها بالعمل أكثر على مشروعنا المشترك وباستقطاع ساعات إضافية من يومي من أجلها. ولكنها غالبا ما تظل على غضبها وخصامها. أعتقد أنه دلال أو طبع في النساء لم أعايشه سالفا، طبعا لأن لا تاريخ لي مع النساء.

مع مرور الأيام واقتراب موعد العودة المدرسية، كان علي أن أنتبه أكثر إلى صغيرتي ومشترياتها المدرسية. أظن أنه لم يكن واجبا ملزما ولكني أحببت أن يكون واجبي ومسؤوليتي أن أتكفل باحتياجاتها.

ضربنا موعدا لزيارة معرض يقام سنويا في المدينة خاص بالأدوات المدرسية والكتب. قبل موعدنا بيوم، كنت وجوليا في المسرح نلقي نظرةً على ديكور الحفل الذي سنقيمه خلال أيام. التقينا بمهندس الإضاءة وطفق يسرد على مسامعنا بكل فخر برنامج تسلسل التأثيرات البصرية ويدهشنا بوسائله المتطورة والعصرية. وكانت جوليا تناقشه في أدق التفاصيل، في حين أني اكتفيت بالاستماع وطلبت منه ألا يسلط علي الأضواء لفترة طويلة. آنذاك وردني اتصال هاتفي من نورة. ابتعدت عنهما وأجبت.

- حبيبتي.

لم تجب، وظننت أنها لا تسمعني. فقلت:

- نورة هل تسمعينني؟

فأجابت:

- لست نورة.

جاءني صوتها مرتبكا في البداية. وقد أربكني أيضا أني سمعت صوتها بعد هذه الشهور. فلم أعرف كيف يجب أن أستدرك الموقف، هل أرحب بها، أم أسألها كيف حالها؟ كيف يجب أن يكون استقبالي: حارا أم عاديا؟ فأنقذتني وأكملت:

- هل نسيت أن هذا رقمي.
- طبعا لا، فقط اعتقدت أن نورة من تجيبني عليه. هل أنت بخير؟
- بخير، وأنت؟

صوت بداخلي قال إن صوتها قد أنعشني وعدت بخير، ولكني أجبت:

- بخير.
- أردت أن أقول لك شيئا...

التفت نحو جوليا، وابتعدت عنها أكثر حتى أستمع جيدا، فأكملت بعد تردد:

- أنا لم أرد أن تنقطع علاقتك بنورة، ليس لشيء إلا لأنها تحبك وتستمع إليك. كما أني... أثق بك. وقد قبلت هداياك الكثيرة لها، وخروجها المتكرر معك. ولكن هذا لا يعني أنها صارت مسؤليتك،

أو أننا في حاجة لمساعدتك. أنت تعرف أني قادرة أن أوفر لها كل احتياجاتها بنفسي...

- لا لا لا... لقد أسأت الفهم يا سوسن. أرجوك استمعي إلي. يوم قلت أني أشفق عليكما لم أجبك ولم أنف قولك. لكن ذلك غير صحيح. أنا لا أفعل شيئا مع نورة بدافع الشفقة. أنا أحبها حقا وأستمتع بوجودها بقربي أكثر مما تتصورين. لا أحب أن أفتكّ منك طفلتك الوحيدة، ولكن أرجوك ألا تحرميني منها. ما أفعله من أجلها يسعدني أكثر مما يسعدها. صدقيني لا نوايا خفية لدي.
- أصدقك، ولكن...
- أرجوك سوسن، لا تكوني قاسيةً علينا.

سمعت تنهيدة استسلام تصدر عنها. ثم قالت:

- طيب، لا أصدق أني أقبل. طيب يا إسكلبيو، غدا كما اتفقتما إذا.

منذ زمن طويل لم أسمع اسمي بصوتها، فدق قلبي بعنف لسماعه. ليتها تكرره مرارا حتى أشبع من صوتها يسميني. انتابني في الحال جوع لصوتها بل مَسْغَبَة تمزق حواسي. حاولت تمالك نفسي وشكرتها. أغلقت الخط والتفت لأجد جوليا خلفي. فزعت لرؤيتها. ليس خوفا ولكن كردة فعل تلقائية من أي شخص كان يعتقد أنه بمفرده وتفاجأ بوجود آخر بجانبه. فعلّقَت:

- هل أفزعتُك؟

- لم تقفين ورائي هكذا؟
- أردت أن أنتظر أن تنهي مكالمتك. والظاهر أنه ما كان عليّ أن اقترب إلى هذا الحد.
- تعرفين أني لا أخفي عليك شيئا.
- هذا ما كنت أعتقد. هل كنت ستخبرني أنها اتصلت بك؟ وأنك عبرت عن حبك لطفلتها كما لم تعبر يوما لحبيبتك؟
- حسنا، هلا حددت لي مأتى غيرتك الآن؟ هل هي سوسن أم نورة؟
- كلاهما. الحقيقة أني صرت أضيق ذرعا بهذه القصة بأكملها. ماذا تريد بالضبط؟ هل فكرت؟ هل قررت؟ هل تريدني أم تريدهما؟
- أعتقد أننا تحدثنا مرارا في هذا. أنا معك أنت. وعلاقتي بنورة أمر لا غنى لي عنه. أنا أحب الصغيرة و...
- وماذا لو تزوجنا وأنجبنا طفلا؟ لمن ستكون الأولوية؟

ما أغربها! لا تنفك تهوي على رأسي بأسئلة تقضّ بها سكينتي! معها ألف حق. لمن ستكون الأولوية؟ أجبت:

- لهما الاثنين. لم لا؟ هل يفرق الآباء بين أطفالهم؟ ألا يحبون طفلا وإثنين وثلاثة؟

صرخت في وجهي:

- ليست طفلتك. افهم...

هزتني صرختها الحانقة، والتفت أتحقق إن كان هناك من انتبه إلينا... تقريبا كل العاملين في المسرح قد سمعونا. عدت لألومها فوجدت شيطانة حمراء الوجه، مجنونة الشعر تلبس فستانا أصفر قصيرا وحذاء رياضيا. تراجعت في نية لومها وآثرت أن أهدئها. جذبت نفسا عميقا وابتسمت رغما عني، وقلت:

- حسنا لا تغضبي تعرفين أني لا أحب إغضابك دعينا من هذا النقاش الآن....

فانتفضت قائلةً:

- بل الآن.
- كما تريدين ما رأيك أن تأتي معي إلى البيت سنشرب القهوة ونتحدث بهدوء. أنت لا تعرفين بيتي... ستحتقرين فيلتك الضخمة التي تفتخرين بها أمام ضيوفك بعد أن ترَي بيتي، هيا!

لم تستجب لدعابتي، ولكنها استجابت لدعوتي. عبست وانطلقت تسبقني نحو السيارة. عندما فتحت باب الشقة، ودخلَت بدأَت تجول بنظرها بين الأثاث والديكور البسيط ورسمت على شفتيها ابتسامة سخرية. فقُلت:

- ماذا؟ ألا يعجبك المكان؟
- ماذا تفعل بأموالك إذا؟ كنت أعتقد أنك مليونيرا!
- خطر ببالي أنها ستنسى بهذا الموضوع ما جئنا للحديث فيه، فواصلت معها:

- وهو كذلك. ألا يبدو عليّ الترف؟
- لكنه لا يبدو على شقتك. اعتقدت أنها ستكون في أفخم ضواحي المدينة على الأقل.

أجبت ضاحكا:

- لست وحدك من يعتقد ذلك أو يفكّر فيما أفعله بأمْوالي الطائلة. عباس يستثمر عقله وقته ليفهم، ولم يفهم.
- سؤالي جدي أنت ثري، لم تعيش هنا؟
- ألن تجلسي؟

نظرت حولها، واتخذت مجلسا هو الأقرب إلى باب الخروج ووضعت حقيبتها في حجرها ونظرت نحوي في انتظار إجابتي. لم يعجبني وضعها ولكني تجاوزت، وأجبت:

- هذا البيت اشتريته في بداية حياتي العملية اعتدت عليه وجهزته بكل ما احتاج من وسائل الراحة التي أحتاج. ثم إني لم أفكر يوما في شراء أغلى وأفخم منه لمجرد امتلاكي النقود. تعرفين أني لا أحب البهرج ومظاهر الثراء والمباهاة والتفاخر...
- تعتقد حقا أن في هذا البيت وسائل راحة؟ أنت حقا قليل الاطلاع.
- ربما، لكنه يكفيني...
- هذا ما تعتقده عني إذا! أحب البهرج ومظاهر الثراء والمباهاة...

- ليس تماما، أنت تحتاجين للمظاهر من أجل مكانتك في المجتمع. أما أنا يقصدني المرضى من كل أصقاع البلاد وما جاورها، سواء سكنت هنا أو في قصر.
- أنت لا تحب أوساط الأثرياء ومظاهرهم وحفلاتهم وكل ما يتعلق بهم.
- لا أكره، ولكن لا يعنونني في شيء.
- كيف ترتبط بي إذا. ألا تعرف أنك دخلت معي عوالم أعتى من عالم الأثرياء؟ عالم الشهرة، والمظاهر المخالفة لحقيقتك والتكلُّف والتّصنُّع. لن يرحمك هذا المجتمع ولن تنجح فيه إذا بقيت على هذه البساطة. الآن صرت مثلي، تنتمي إلى نفس الوسط وتخالط الناس الذين أخالطهم. وهذا يعني أنك أيضا تحتاج إلى المظاهر من أجل مكانتك في المجتمع.
- لا يهمني أن أنجح في عالم الفن، أنا جراح ناجح. هذا ما طمحت له وعملت جاهدا من أجله... وكتبته يوما في قصاصتي.
- وأنا؟
- ماذا عنك؟ أظن أن كلا منا يسير في الطريق الذي اختاره لنفسه. أنت ترتقين في حياة مهنية كما لم تحلمي يوما.
- والفضل يعود لك.
- لا بأس في ذلك. الناس لا يهتمون لأمري، بل يأتون من أجلك.
- لكن الحقيقة نعلمها نحن الاثنين.

- وهو كذلك، لا أحد غيرنا يعرف، لذا فمكاني بجانبك لن يلاحظه أحد سواء كنت فيه أو لا. ما الذي يقلقك؟
- أن تتخلى عني.

فكرت قليلا وقررت أن لحظة صدق كهذه قد لا تأتي مرةً أخرى. قلت:

- جوليا. لن تعتمدي علي طيلة مسيرتك الفنية. أنا لن أعزف إلى جانبك إلى الأبد. هي فترة نستمتع بها وستمر. ثم أعود إلى مهنتي الحقيقية. المستشفى الذي حلمت به سيكتمل قريبا، وسأفتتحه خلال أشهر معدودة. إنه مشروع حياتي. ليس هذا فقط، بل سيكون مصدر رزق عشرات العائلات. وهو يحتاج إلى أن أتفرغ له تماما.
- تتفرغ تماما!
- استمعي إلي. أنا أعيش فترة عصيبة تؤرجحني بين الظن واليقين. الفن يعيدني إلى خط الحياة التي هربت منها ومحوتها. أنا أعيد رسم خط قدري كما هو مطابق تماما لما كان عليه في البداية. لا أفهم إن كنت محوته ورسمت حياة أخرى فلم أعيشهما معا؟
- لا تنس أنك تفعل هذا بملء إرادتك ولم تصحُ لتجد نفسك هناك معي على مسرحي.
- صحيح أني فعلت وأفعل بملء إرادتي. قد نختار أقدارنا منذ البداية بكل إصرار وعزم ونمضي قدما في تحقيقها ولكننا نجهل عواقبها ونهاياتها. أما أنا فأعرف، ورغم أني فتحت لنفسي بابا

كبيرا لأمشي نحو طريق أخرى إلا أنني أعود طَوْعا وقسرا لأعيش ما رفضته يوما. أنا أعرف أن اتباعي للفن سيعود علي بالحزن والوحدة. ولكن لم أستطع تفاديه.

- إن أقدارنا تتقاطع. لو أنك عدلت عن حياة يشاركك فيها أناس آخرون ذوي أقدار أخرى فأنت تغير في حياتهم وأقدارهم بلا شك. بالتالي، إذا مضيت في طريق آخر فإنك تلمس حياة ويوميات وربما قرارات أناس آخرين ستقاطق حياتهم حياتك بشكل من الأشكال وستغير فيها حتى ولو قيد أنملة.

مثلا لو أنك قبلت قدرك الأول وما فعلت شيئا لتغييره، فربما ما كنت لتفارق أمك وما كانت ستتبنى الفتاة الصغيرة. هذه الصغيرة كانت ستمضي صغرها وشبابها في دار الأيتام أو ربما تبنتها عائلة أخرى لتربيها بطريقة أخرى على أخلاق وديانة ومعتقدات أخرى... قد تكون عائلة ثرية تفتح لها أبواب الدنيا... قد يكونا زوجين مرضى نفسانيا... الاحتمالات لا تنتهي. فقط أعطيك هذا المثال لتقيس به على بقية الناس حولك. أو لا تفعل فهذا سيدخلك في دائرة جحيمية لا منفذ منها. ولكن فكر فقط أن ما غيرته يوما يرتبط كثيرا بي. وأنا اخترت طريقي ووجدتك في منتصفه وما كنت أتخلى عمّا تستطيع أن تثري به مستقبلي الفني. أنت رسمت وخططت وربما غيرت في قدرك، ولكنك لن تستطيع مس الجزء الذي يتعلق بي. أنا أكثر منك عنادا وجرأة.

- إنها أنت إذا.

وضعت حقيبتها إلى جانبها واستدارت نحوي بكل جسمها وقالت:

- اسمعني إسكلبيو. إن كنت تمهد للانفصال عني فأنا أعفيك. ولكن لا تتخلى عني الآن ونحن في القمة. الناقدون والجمهور ينتظرون مني الآن الإبداع ولا شيء غيره. أنا لم أعد قادرة على تقديم عروض عادية فأي حركة في القمة قد تنزل بي إلى السفح السحيق.

ما أدهشني ليس بساطة الانفصال عني بالنسبة إليها، ولا افتضاح علاقتها بي القائمة على المصلحة. أبدا! ما ما أدهشني هو أن كلمة الانفصال نزلت على نفسي بردا وسلاما. فتركتُ العنان للساني حتى ينطق بما يشاء:

- أنا أريد الانفصال عنك وعن الشهرة.

رغم وقاحة كلماتها، فإنها صُدمت من إجابتي أيما صدمة. بدا ذلك على وجهها الصغير الذي احمر غيظا. ثم تلعثمت وهمّت بالكلام ولكن عقلها لم يسعفها بردّ مناسب، أو هو لم يحدد بعد ما يجب أن يكون موقفها من صدِّي الصريح. هي التي طالما تباهت بنفسها وسعي الكل من أجلها. هي من كانت تحتقر أسلوب عيشي وبيتي وبساطتي. تلقى مني هذا الردع والقطيعة. هل ستترجاني أو ستتكبر؟ لم أعد أهتم. انتظرت ردة فعلها من باب حب الاطلاع. ولكن تردُّدَها حسم الموقف عندي فأنا حقا لا أكترث.

تمنيت لو ينتهي الحوار هنا، لو أنها تغادر. مهما يكن لا استطيع أن اطلب منها الرحيل. فجأةً وجدتها تطأطئ رأسها كأنها ستبكي. فاقتربت منها متأسفا عما بدر مني، وضعت كفي على كتفها وقلت:

- جوليا، أنت بخير؟ أنا لا أقصد أن أكون فضا معك، فقط انفعلت. نحن أصدقاء و سأكون إلى جانبك دائما.

دفعت كفي عنها بعنف ورفعت رأسها لتُواجهني بكل غيظ:

- لا أحتاجك. أعرف ما أريد وكيف أحصل عليه. أما أنت فلست إلا بيدقا مغرورا يعتقد أنه وصل إلى المُلك.

وقفَت والتقطت حقيبتها وغادرت. ثم فجاءتني بالعودة إلى الباب لتقول:

- إسكلبيو، أرجو أن تكون فهمت معنى "لا أحتاجك". حتى صداقتك لا تعني لي شيئا.

لم أجبها. فقط تركت لها المجال للقيء بما في قلبها. المهم أني الآن حر.

أنا حر وسعيد. حر أن أفعل ما أشاء ومتى أشاء. لم أعد ملزما بالعروض والعمل الفني. من الأحمق الذي خلق من الفن عملا. أستطيع العزف كما أشاء وما أشاء.

أنا حر لأعود إلى الجراحة دون أي قيود أو مضايقات... أنا حر ... أنا حر لأكلم سوسن... سوسن؟ يجب أن أذهب إليها الآن.

دُرت حول نفسي بحثا عن مفاتيحي أو عن قرار ثابت. أريد أن أذهب إليها. لا أعرف ما سأقول، لكنني أشتاق إليها وإلى حضنها الذي لم يحطني يوما. اشتقت إلى ضحكتها من دعاباتي السخيفة. شعرها البني الناعم وتسريحته البسيطة. رائحتها الخافتة. خطر ببالي أنها لم ترني منذ أشهر. أو لم ترني عن قرب منذ أشهر، يجب أن أكون لائقا. هرعت نحو المرآة، فوجدت وجهي مرهقا وشعري غير مسرح، وعيناي تحيطهما الهالات الزرقاء. كما أني أرتدي بدلة زرقاء وهي لا تحب البدل. لن أذهب إليها هكذا. يجب أن أرفع نسبة قبولها لي إلى أقصى حد. كما أنها الظهيرة وهي ولابد في عملها الآن.

أخذت حماما خفيفا، تعطرت ولبست ثيابا رياضيةً. و وقفت ثانيةً أمام المرآة؛ رجل وسيم، واسع العينين، متناسق الملامح، غزير الشعر ذا خصلات رمادية، طويل القامة متأنق. لم يبق إلا أن أكون في حديثي إليها كيّسا، حكيما، وصادقا. أجل يجب أن أكون صادقا. ستشعر بذلك وتتقبل عودتي إليها.

فكرت أنه يجب أن أحضّر حديثي إليها. ربما علي أن أتروى حتى لا أفسد الأمر. ماذا لو أنها ارتبطت بشخص آخر؟ لو حصل ذلك لكانت نورة أخبرتني. ربما لو تحدثتُ إلى نورة أولا؟

هذا التردد الذي أضاع فرص حياتي.هذه المرة لن أنتظر. سأذهب إليها. وسأفعل أي شيء من أجلها. سوف تقبل عودتي ونجتمع نحن الثلاثة في بيت واحد.

لكني سأهاتفها أولا. ركبت سيارتي واتجهت نحو محل عملها. جذبت نفسا عميقا، ودخلت. وما أسعدني وهون علي أني وجدت نورة هناك بانتظار نهاية دوام أمها. رحبت بي وسألتني عن سبب قدومي، فأخبرتها أني أريد التحدث إلى سوسن، وطلبت منها أن تتركنا قليلا لنتحدث بمفردنا وسوف نخبرها بالموضوع لاحقا لأنها كبرت وصارت جديرة بمعرفة كل شيء.

عندما رأتني، كانت ردة فعلها عادية وغامضة نوعا ما، ابتسمت ولفظت بضع كلمات ترحيب مجاملة. وسكتت في انتظار معرفة سبب مجيئي. قلت لها إني أريد التحدث إليها قليلا بمفردنا. التفتت إلى الباب الذي يفضي إلى مطبخ المحل ثم أجابت بصوت منخفض:

- يجب أن أعطي بعض الطلبات لعامل التوصيل، ثم سأخرج. هلا انتظرتني في الخارج؟

في الخارج؟! لم تريدني أن أخرج؟ كأنما تخشى أن يراني أحد ما! لم ألح، فقط وافقت وخرجت إلى سيارتي. ترقبتها زمنا ولكنها تأخرت، فخطر لي أن أعود إليها. حين اقتربت من الباب سمعت صوتها وهي تصرخ في غضب:

- لأن نواياك لم تكن طيبة البتة. وأنا اليوم من ترفض العمل معك أو مشاركتك.

هممت بالدخول ولكنني فوجئت بها تدفع الباب بإِنْفِعَال وتخرج ممسكة بيد ابنتها. تجاوزتني كأنها لا تراني ولكنها اتجهت نحو سيارتي و وضعت ابنتها

في الكرسي الخلفي وصعدت بدورها واغلقت الباب بقوة. مررت بلحظات بلاهة ثم استدركت نفسي وأسرعت إلى كرسي القيادة. لم أعرف هل أقود إلى بيتها أو إلى أين، هل أسألها؟ ماذا يجب أن أقول؟ حسمت موقفي وشغلت المحرك. لم أحدد وجهتي فقط انطلقت. تركتها فينةً تتنفس وتهدأ، ثم قلت:

- أنت بخير؟

التفت نحوي بحنق وقالت:

- وهل أبدو بخير؟
- لا، ماذا حدث؟
- اسمع لقد ركبت سيارتك لأني لن أقود وأنا في حالة هيجان هكذا. لذا أرجوك لا تحاصرني بالأسئلة لأني لا أريد التحدث في أي شيء. خاصةً وأنك السبب في ما حدث.
- أنا السبب! في ما سأكون سببا؟ وهل تكلمت أو فعلت شيئا؟ الظاهر أن شخصا ما يكرهني بالداخل و اغْتاظ لقدومي. فضلت أن أسكت وأتركها بحالها آنذاك. وأخذتها إلى بيتها. حين وصلنا نزلتا من السيارة، وعزمت على المغادرة. ولكنها طرقت على النافذة وقالت:
- انزل، ألم تأتي لتحدثني في شيء ما؟
- أعتقد أن الوقت غير مناسب، فلنتحدث لاحقا.
- انزل.

وذهبت.

نزلت وتبعتها وأنا على ثقة أني لو كلمتها في ما جئت من أجله حقا فإني لن أحظى بحسن الجواب. ولكن على الأقل أفهم كيف كنت سببا في مشكل مع شخص ما في محل عملها.

رائحة بيتها لا تتغير. بَوَاقي من نَكْهَة مطبخ البارحة وفشار السهرة، خليط من عطرها وشذا الصغيرة، مواد تنظيف بعَبِير الخزامى. رائحة بيتها دافئة ومنعشة ومهدئة. جلست وقعدت نورة إلى جانبي تسند رأسها إلى ذراعي وهي تحضنه، فمسحت على شعرها كردة فعل تلقائية. وجدت أمها تنظر إلينا بتفحص وإنكار، وما لبثت أن تركتنا ودخلت إلى مطبخها سائلة:

- عصير بارد؟
- لا أريد إزعاجك، يكفي ما تسببت به في محل عملك.
- لا بأس أنت تزعجني من يوم رأيتك، هل تذكر؟ أول كلمات سمعتها منك؟

هي تقصد إعلاني وفاة زوجها، ولكنها لن تتحدث جهرا الآن. خرجت من المطبخ مبتسمة وهي تحمل علب صودا وناولتنا إياها قائلة:

- نسيت، لقد أجهزنا على كل العصير البارحة.

وبما أنها بدت أحسن حال فقد فكت عقدة لساني وارتخت أعصابي:

- هل ستخبريني بما حدث هناك، وفيما كنت السبب؟

- لست السبب في شيء، إنه رجل بغيض وإنتهازي. كما أني فجرت غضبي فيك وأنا آسفة.

حافظت على صمتي لأترك لها المجال لتتردد و تفكر وتقرر أن تتكلم. وأخيرا نطقت:

- منذ أسابيع عرض علي طارق صاحب المحل فرصة بدت مجزية في البداية، وهي أن أكون شريكته في محل حلويات جديد سيفتحه في الجهة الشرقية من المدينة. سيكون هو صاحب رأس المال وأنا صاحبة الخبرة ولأنه يعرف أن العملاء يقصدونني أنا وليس المحل. عرض عليّ ثلث الشراكة والأرباح. تعجبت من عرضه المجزي في البداية، ولكني فهمت لاحقا أن لعرضه تبعات وثمنا أكثر جزاءً. شرطه الأول كان أن أتفرغ تماما لهذا المشروع، وقد كان صريحا ومباشرا في شرطه هذا إلى حد الوقاحة فقال أنه على غير استعداد لتقبل مشاريع موازية في حياتي، كفتح مشروع خاص بي وحدي أو الزواج وما يليه. تجاوزت سفاهته لأني تعودت طيلة سنوات عملي معه على عداوته للرصانة واللياقة. ثم اشترط أن أعلّم الصانع الجديد الذي سيحل محلّي أسرار وصفاتي التي أحتفظ بها لنفسي، والتي يسعى من أجلها خلفي معظم الزبائن.

الحقيقة أني استصعبت القبول بهذا الشرط لأن سنوات عملي وخبرتي لم تكن بهذه السهولة لأكشفها بهذا الزهد. وكنت أحتفظ بها وأجددها وأطورها من أجل حلم... قد لا يتحقق.

قالت هذا وسكتت، أردت أن استدر منها باقي الأحداث، و لكني خيرت أن أتركها في لحظات بوحها بمكنونات رأسها. قد تخبرني بحلمها. ولكنها فضلت أن تكمل:

- واجهته برفضي لشرطه الأخير، فهو طمع في رأس مالي وهو ما لن أهدره مهما تحايل. وقلت له إني أستطيع توفير الطلبيات لكلا المحلين، ويكفي أن يوفر لي مساعدين. فقبل ولكن على مضض وعلى يمين في صدره أنه سيوقع بي. ولأني فهمت ذلك فكرت في التراجع في قرار شراكتي معه، ثم فكرت أني لن أخسر شيئا ولم لا أجرب! حددنا موعد فتح المحل الجديد بعد أسبوعين. واليوم عندما رآك عمل رأسه المريض على خلق سيناريوهات متشعبة، وسألني إن كنت لا أزال على علاقة بك. لم أقبل تدخله في حياتي الحميمة بهذا الشكل، ولكن تلافيا لأي سوء فهم قلت له أن لا علاقة بيننا أصلا. ولكنه فهم قبولي لأسئلته على أنه خوف أو انصياعٌ أو إشارة ليتقدم أكثر فوق منطقتي الخاصة. فقال لي بالحرف:

"لست أحمقا حتى أصدق هذا، ابنتك تخرج معه بشكل متكرر، ويشتري لها ما لا يشتريه والد، وهو اليوم يعود بعد فراق إما لترضيتيك، أو لأنكما لم تنفصلا أصلا. "

جن جنوني من وقاحته، وانطفأ نور العقل في رأسي، وأسمعته ما يستحق أن يسمعه منذ زمن. نعته بكل صدق بالوقاحة والسفاهة

والغرور والحمق أيضا إن كان يعتقد أني سأقبل دقيقة أخرى بالعمل معه. نزعت مريلتي وألقيتها في وجهه. والحق أني ندمت.

تعجبت جدا لقولها هذا، وقد ظهر ذلك جليا على وجهي، فأضافت:

- المريلة، لقد خاطتها من أجلي أمي، واستعملت فيها أقمشة ملونة أحبها.

ضحكت، ثم قلت:

- عودي من أجلها إذا. عندما سيراك سيعتقد أنك عدت للاعتذار، آنذاك خذي مريلتك وغادري! صدقيني سيجن أكثر.

تَضاحَكَت وقد استحسنت فكرتي وعادت تخفض رأسها كأنما تذكرت شيئا. وما لبثت أن قالت:

- لكنه عبث بي واستغلني. كم أندم اليوم على كل مرة صرخ في وجهي أو أرغمني على العمل إلى ساعة متأخرة أو تجاهل مجهوداتي لإرضاء العملاء، وقبلت... أحيانا أندم حتى على سيري وراء حبي للحلويات، لم اخترت هذه الصنعة؟ لقد نسيت... لا أذكر أني كنت أحبها، فقط اخترتها لسبب ما، ثم عشقتها، وغصت في أسرارها ولذة ثمارها. ليتني اخترت طريقا آخر... هذا ما كتبه الله لي. أعرف، لن أكون جاحدة، فأنا على الأقل ماهرة وكل المدينة تعرفني...

- لا تعقّدي فكرك أكثر، أنت تحبين ما تفعلين فلم لا تفتحين متجرك أنت؟ وتسمينه "سوسن هنا⬇"؟

افترّت، وأمالت رأسها كما اعتادت حين تطرب لحديث ما، ثم عقبت:

- ليس الأمر بهذه السهولة.
- بلى هو كذلك. سأتكفل بكل ما يلزمك من محل وتجهيزات ومواد. وما عليك إلا أن تخبزي. هل أعطيك فكرة أحسن؟ افتكّي منه بقية موظفيه إن كانوا أصدقاءك وتثقين بهم.

وهنا هتفت نورة:

- فكرة رائعة، ستأتي معنا سلمى والخالة هدى... وسليم أيضا سيوصل طلباتك.

انعقد حاجباها وهي تنقل نظرها بيننا متعجبة:

- لن تتكفل بشيء. لم أصبر وأجاهد وأحسب وأقتصد طيلة سنوات لأعتمد اليوم على حضرتك لتفتح لي محلا. ثم كيف تعتقد أني سأقبل؟ مالذي يجمع بيننا؟ هذا الصباح اتصلت بك لأقول لك أن ابنتي هي مسؤليتي أنا وليس أنت، والآن تريد أن تفعل معي كما تفعل مع نورة؟ أعتقد أن المال قد نخر في خيوط رأسك.
- انتظري! لا تقولي شيئا آخر. استمعي لي أولا.

سكتت دون أن تمسح عن وجهها سحنة الغضب، فأكملت:

- هلا عدت للجلوس؟

فجلست وقد ضمت قبضتيها فوق ركبتيها كأنها تتحضر لتلكمني. فواصلت الكلام بهدوء:

- أنا لم أخبرك لم جئتك اليوم. الحقيقة أني وددت لو نتحدث في جو ومكان أحسن وأكثر هدوءا وانفتاحا. وطلبت أن نتحدث بمفردنا حتى لا تؤثر نورة في جوابك. وبعد ما حدث معك خمنت أن الوقت غير مناسب أبدا للخوض فيما جئت من أجله. ولكننا وصلنا إلى حافّة نفس الأخدود، فإما أن أتراجع كما اعتدت أن أفعل أو تمسكي بيدي لنقفز معا.

زفرت لتخرج نفسا كان مكبوتا داخلها، وأرخت كتفيها وقالت:

- هل يفترض أن أفهم ما قلته الآن؟
- لا... طبعا لا.

سوسن، أنا أحبك، طالما أحببتك منذ تفحصت وجهك أول يوم أتيت إلى هنا. أنت تذكرين ولا شك لقد رأيتني وتنبهت إلي (أومأت برأسها إيجابا) لكنني لم أجرؤ. خاصةً بعد أن أمّنَتني نورة على سرّها ورغبتها أن تبقيْ لها ومعها فقط، كما أنك أكدت لي ذلك... خفت إن تقدمت أن تنكريني وتخرجيني من حياتك.

ترددت كثيرا ووجدت ملهى لنفسي وعقلي في عزف البيانو وفي علاقتي بجوليا. لكنها رغم ذكائها وجمالها ومكرها أحيانا لم تستطيع ملك قلبي.

ليست هي من أريد ولا أنا من تريد. غبت عنك ووعيت متأخرا... أنا أعرف. ولكني اليوم على ثقة عمياء أن ما أحسه هو حب صادق وإختيارٌ صائب لمن أريد أن تشاركني سنوات العمر على قدر مداه. ليس شعورا بذنب، ولا شفقة. إن قلبي تعلق بك وبنورة منذ البداية، ولكن الأحداث المحيطة بنا آنذاك أدخلت الشك إلى رأسي ورأسك أيضا.

اليوم أنا أعرف ما أريد. وجل ما أتمناه هو أن أكون أنا ما تتمنينه أيضا. سوسن أتيت لأسألك: هل تقبلين الزواج بي؟

طالما عبثت بي قسمات وجهها الكتومة. كأنها تستمع لحكاية لا تعنيها ولكنها تستمع لتفهم. ارتخت كل عضلات وجهها لترسم الحياد وتربكني. حتى أنقذتني صغيرتي المحبوبة قائلة:

- أمي؟ هاهو عرض عليك الزواج. هل ترين؟

التفتت إليها مندهشة كأنهما تطرقتا إلى الموضوع سابقا. ورفعت إليها إصبعا أن توقّفي وإياك ومواصلة الكلام. أعجبني الخاطر وأرضى غروري إلى نهايته. فابتسمت وأضفت:

- بما أنك فكرت في ذلك سابقا، فربما لن تستنفذي صبري وستجيبنني...

قررت أخيرا أن تنطق. فأخذت نفسا وقالت:

- كان ذلك منذ زمن. قبل أن تبتعد.
- لا يهم، أنا هو أنا. لم أتغير، بل صرت أكثر ثقة.

سوسن, قبل أن تجيبي يجب أن تعرفي أن عرضي أن افتتح لك المحل ليس إغراءً فأنا أعرف عفة نفسك ولن ألجأ لمثل هذه الطرق الرخيصة. إنما هو فقط استجابة لرغبة مني أن أراك سعيدة مستقلة وتحققين حلمك كما تريدين. وهو لا يزال ولن يزال قائما.

النهايات كما نحب

استيقظت على دقات على باب غرفتي ثم صوت فتحه. ثم ضربات خفيفة بوسائد على رأسي وكل جسمي، وسمعتها تهتف:

- استيقظ يا كسول.. استيقظ!

رفعت اللحاف لأجد ريم تقف أمامي وهي تضع كفيها في خصرها قائلة:

- لديك عدة التزامات اليوم، وأهمها أنك وعدتني أن تأخذني لأشتري فستانا وحذاءً وحقيبة وعطرا لحفل الزفاف.

أجبتها:

- أولا، أنا لم أعدك أن أفعل ذلك اليوم، ثانيا، أنا العريس، المفروض أن تساعدوني وتحملوا عني بعض المهام لا أن تزيدوها.
- لا بأس، لن اعترض، هات مفتاح السيارة والكارت وسأذهب بنفسي ولن أقلقك البتة. بل سأتركك تنام حتى المساء.

ورفعت وجهها و كفيها للسقف مضيفة:

- يا الله، أين ستجد أختا متفهمة مثلي؟ حتى لو أنجبت لك أمك أختا من لحمك ودمك، فلن تحس بك مثلي.

أجبتها بجدية:

- معك حق! أحيانا تنطقين عن أفكار لامعة وإحساس حنون تجاه أخيك، خذي (وألقيت على وجهها وسادة) لن تأخذي بعد هذه شيئا... محتالة

الحق أنها تفادت الوسادة، وقررت أن حركتي هذه بمثابة إعلان سافر للحرب، فأخذت تقفز من مكان لآخر تلتقط الوسائد من كل صوب وتضربني بها، حتى وقفت وأمسكتها حتى أشل حركتها، وقلت:

- والآن؟

رسمت المتحيّلة وجه القط المسكين اللطيف على ملامحها وقالت:

- أرجوك... لم يبق على الزفاف سوى أسابيع وأنا لم أشتر شيئا.

تركتها ولبست خفّيّ لأتجه إلى الحمام قائلا:

- أحسنت قولا، أسابيع وليس أيام. اسمعي لدي عرض: اليوم وعدت سوسن أن أذهب إلى بيتها حتى نكمل حزم أغراضها ونقلها إلى البيت الجديد. إن أتيت معي وساعدتني بهمة وإخلاص فسوف ننتهي باكرا وسآخذكم جميعا لنفطر في أي مطعم تختارينه! ما رأيك؟
- وفستاني؟
- غدا سأكون في خدمة فستانك وحذائك وحقيبتك.
- وعطري؟
- وعطرك أيضا. أمي أيضا لم تشتر ثوبا بعد. نأخذها معنا إذا؟

مدت كفها لتصفق به على كفي كناية عن الاتفاق.

كانت غرفة المعيشة مفروشة بصناديق الكرتون بعضها معبأ أو مغلق أو فارغ بانتظار دوره. أخذت أحدها وسألتها: من أين أبدأ؟ فأشارت إلى الحمام، وقالت:

- ستجد هناك مناشف وأدوات حمام جديدة ومغلفة، نأخذها أما القديمة فتخلص منها. ويوجد صندوق الصيدلية، أريدك أن تفرز الأدوية التي داخله. اترك ما نحتاجه وإرم البقية.

كانت أغلبية الأدوية منتهية الصلاحية، ولم أترك إلا بعض القطن ومعقم و... ما هذا؟ إنه دواء منوم ولكنه أيضا منتهي الصلاحية. رميته وأكملت حزم الصناديق. نجحنا في جمع كل الأدباش في نهار واحد ووضعناها في شاحنة النقل. وكجزاء للفتاتين على مجهودهما أعطيتهما نقودا وسمحنا لهما بفسحة وحدهما في الجوار إلى أن يحين موعد العشاء.

بقيت مع سوسن نجمع ما تبقى لرميه. حين اعترضها كيس الأدوية زفرت متعجب :

- أووه أَكُلّ هذه الأدوية قديمة.

أجبتها:

- وإن لم تكن! فستنتهي قريبا. ثم هل نسيتي أنك ستتزوجين طبيبا؟ صحتك وصحة نورة مسؤوليتي الآن.

أعجبتها إجابتي، أنا متأكد. لقد بقيت تتطلع في وجهي مبتسمة، ثم عادت للعمل معقبة:

- كما تريد إذا.

وهنا تذكرت شيئا، ولم أمسك نفسي من طرح السؤال:

- هل كان المرحوم يستعمل دواءً منوما؟

لم ترفع رأسها، ولكنها أخذت وقتها في التفكير ثم قالت:

- لم اعتقدت أنه هو من يستعملها؟ وليس أنا؟
- لأنها منتهية الصلاحية، هذا يعني أن من اعتاد استعمالها كفَّ عن ذلك منذ زمن.

رفعت رأسها بملامح جامدة، وحدقت بوجهي كأنها تتردد في ما ستقول، ثم نطقت أخيرا:

- بل أنا.

فكرت أن أبسّط الأمور أمامها، فهي تقرّ أنها كانت تستعمل أقراصا منومة كأنها تعترف لشرطيّ أنها تستهلك مخدرات:

- لا بأس، جميعنا نمر بفترات توتر وضغط أو إجهاد، ونعجز عن النوم. والخبر المميز أنها تتكرر. المهم ألا تدمني عليها فتعجزين عن النوم دونها حتى في أيامك العادية. وأعتقد أنك لم تستعمليها منذ أشهر.

- - أجل منذ أشهر.

وجمَت لحظات، واعتقدت أنها ربما تريد أن تحدثني عن تلك الفترة العصيبة، ولكنها واصلت على وتيرة الصمت. ربما لو سألتها، فأنا حقا أهتم وأريد أن أعرف ولكن لا أريد أن أضغط عليها. هي تعرف أن هذا هو الوقت المناسب لتحكي لي ما كان يقلقها يوما. وأخيرا، رفعت رأسها بعد إطراق، وبدت عابسة وأكملت:

- كنت أعاني من مشاكل متكررة في عملي. تعرف أن علاقتي برئيسي طارق كانت دائما مضطربة، تسودها الخلافات. لعلمك، استقالتي التي شهدتها لم تكن الأولى. قد تشاجرت معه واستقلت عدة مرات، رجل فظ، لا يعرف معنى الاحترام إلا لشخصه، يعتقد أنه يستعبدنا لمجرد أنه يدفع لنا. كأننا لا نقابل نقوده بعمل و تفان وتعب. المشكل أني كنت أرجع عن قراري إذا اعتذر أو تدخلت زوجته. كما أن المرحوم لم يكن متفهما جدا. بل ملحا في طلباته أحيانا. وعندما تثقل مسؤليتي، وينهكني العبء أعجز عن النوم. وأنت تعرف كيف يمكن لنقص النوم أن يؤثر على جسم أي كان وعلى أعصابه. فأعمد إلى الأقراص المنومة كحل أخير أغيب به زمنا عن هذه الدنيا.

مددت يدي أربت على كتفها وأمسح رأسها. لم أعرف كيف أجيبها فتركت لساني ينطق بما يريد:

- أبشري إذا، لن تعملي مع طارق ثانيةً ولن يعود المرحوم ليتطلب في حياتك بعد الآن.

أظن أن ذِكري لزوجها المتوفي بهذه الطريقة الساخرة لم يكن مهذبا ولا ملائما، وخشيت أن يكون خطئي في عينها فادحا. ولأنني محظوظ بدر منها صوت كأنه ضحكة مكتومة. بل هو كذلك وقالت:

- بشرك الله بكل خير، اسمع! فكرت في شيء وكنت سآخذ رأيك فيه لاحقا، ولكن على ذكر طارق أريد أن أحدثك بشيء الآن.
- طارق؟ أنت جدية؟ ترفضين أن أفتح لك محلا وتفكرين في العودة إليه!
- من قال هذا؟ اسمع أولا!
- تفضلي سيدتي! أنا آسف. كلي أذان صاغية.
- نحن سننتقل إلى البيت الجديد. وما ادخرته من نقود يكفي معدات وتجهيزات لمطبخ حلويات. أستطيع أن أشتري فرنا كبيرا وثلاجة على كبر هذا الحائط. وأحدث في غرفة المعيشة طاولة عمل تتسع لأربعة عمال. كما أني أملك الكثير من الأدوات هنا. وسأتخذ إحدى الغرف المكيفة كمصنع خاص بالشوكولا فهي تحتاج إلى مكان ذي درجة حرارة منخفضة. أعني إن فكرت أن أستغل هذا البيت كمعمل. أصنع طلبيات هنا وأرسلها مع فتى التسليم. وأستطيع أن أتعاقد مع مقاهي من أجل معجنات الصباح. بعد أن أُعرَف جيدا بمكاني الجديد. سوف أحتفظ بالمعمل وأفتح نقطة بيع فخمة في

وسط المدينة. وأسميها "سوسن هنا ⬇" أليس هذا الاسم الذي اقترحته أنت؟

رغم أن قفزتها الرشيقة من الموضوع الذي كنا نخوض قد أقلقتني وشوشت فكري، إلا أنه سرني أنها احتفظت بفكرتي رغم سخفها، حاولت مسايرتها والتظاهر بعدم الانتباه لتهربها وقلت:

- فكرة طيبة. تبدو الاستراتيجية رشيدة وسليمة. أنا معك حبيبتي في أي طريق تختارينه. اعتمدي علي فقط. أما عن الاسم فقد كان مزحة. أستطيع أن أفكر لك في اسم آخر.

اقتربت مني وأحاطت رقبتي بذراعيها وقد رسمَت ابتسامة رضا على شفتيها الندية، رائحة حضنها كالجنة، وجهها بهذا القرب ملاك آسر. أحطت خصرها اللين بذراعي. التقت عينانا في لحظة ناعمة وانخفضت رموشها إلى فمي تحُثّني على الاقتراب، وقالت:

- هذا الاسم يحمل رسالة. وأنا أحبه... وأحبك.

ولأنني أَخْرَق أتجمد عند كل صدمة، أحسست بها ترتفع على أطراف أصابعها من أجل أن تذيقني طعم النعيم. وقبلتني لأول مرة.

تلك الليلة جثمت الأفكار فوق صدري مخلوقات شيطانية وملائكية بين مشوشة ومخدرة. أفكار متضاربة تتجاذبني كل إلى كوكب. ذكرى قبلتها تخرجني من دنياي إلى فردوس ذي جنان وعيون؛ سكينتها في حضني،

إحساسي بذراعي يحيطان خصرها، تعلقها برقبتي، مذاق شفاهها الطرية تلامس فمي، دفء أنفاسها. لا أنفك أعيد تلك اللحظات في رأسي. وعقلي يجند كل جسمي ليعيد إليّ أحاسيس ذلك الحين. ترتعد شراييني ثم أطمئن. يدق قلبي بعنف لترتفع حرارتي حماسا ونشوة، ثم يغرق في حلاوة الوجد. ليس حلما. إنه الحق وأنا سأتزوجها قريبا.

تمسك الأفكار الشيطانية بتلابيبي تنزلني أرضا فأرتطم وأشهق. هل ما قالته عن فترات الضغط كامل؟ هل هذا كل شيء؟ لم توقعت أن تسرد تفاصيل أكثر؟ ربما هي لا تريد ذكره أمامي. أو ربما لا تريد ذكره أصلا. ولم؟ لذلك انتظرت تفاصيل ما كان يحدث. جملة ظلت تتردد في رأسي كالصدى "أعمد إلى الأقراص المنومة كحل أخير أغيب به زمنا عن هذه الدنيا"

لم تكن تريد أن تنام وترتاح لتستعيد طاقتها. هي تريد أن تغيب عن هذه الدنيا. إن ما مرت به ليس أزمة أو فترات ضغط بل اكتئاب.

السؤال: هل تدرك هي ذلك؟ ليتني أستطيع أن أفتح الموضوع ثانيةً معها. ولكنها لن تسايرني. لقد تعمدت اليوم أن تغير الموضوع عند أول منفذ. أكيد أن طارق نذل ولكنه ليس السبب فيما عاشته يوما. إنه زوجها الميت، كأني لا أعرفه. ربما هي لا تريد أن تحكي لي عنه لأنها تعرف ماضي معه.

أذكر أنه كان وغدا، ربما عاش معها وغدا كذلك. ليس غريبا. قد يكون ألحق بها الأذى، بروحها أو حتى جسدها. أنا لا أستغرب من جلف مثله أن يفعل. ولكن أستغرب أن يؤذي ملاكا مثلها. لكل منا جانبه المظلم، الغَليظ أو الغاضب، حتى سوسن ولكنه لن يكون مستفزا لدرجة الإيذاء. إنه أناني وقذر. كلما ذكرت مقالبه فيّ وإيذاءه لي ولغيري أتأكد من فكرة أنه ألحق بها الأذى. كيف لم يخطر ببالي ذلك قبل اليوم؟ طبعا كنت أتبع خطى جوليا كالأخرق. ولكن لماذا تُخفي ذلك علي. ليست من النوع الشاكي الباكي لكي تضع رأسها على صدري وتنهمر في بكاء شديد ثم تسكب عندي كل شكواها من حياتها الماضية الأليمة. هي ذات أنفة وفخر بنفسها، لا تكشف عن ضعفها بل تراوغ لتتستر عليه.

لكن أنا اليوم حبيبها ورفيق دربها. غدا أصبح زوجها. ربما لا تريد الحديث في موضوع فات وانتهى. حسنا سأسألها يوما آخر ربما بعد الزواج، سنكون أقرب ولدينا كل الوقت لنتحدث وتحكي لي عما حصل معها. حتى وإن كان الحديث في الأمر قد فات، فإنها يجب أن تشفى تماما من الاكتئاب الذي عانته يوما.

مددت يدي إلى المصباح أطفئ نوره. والتفت على جانبي مغمضا جفوني مستسلما للنوم. ولكن مشهدا ظهر فجأةً أمامي مطالبا بحقه في التفسير. يوم خرجت من غرفة العمليات وأعلنت وفاته... ردة فعلها لم تكن لزوجة تعاني من اكتئاب من خلافاتها مع زوجها. لو كانت كذلك كانت ستحزن

بهدوء وربما ستظهر حزنا زائفا أمام الناس. ولكن ما حدث أنها كانت فزعة متوجعة بحرارة. أذكر بكاءها وحرقتها. ليست سوسن من النوع المنافق. حتى وإن حزنت لأجل ما أصابه فلن تكون ردة فعلها بهذا العنف والوجع. رأيت الألم في عينيها، في أصابعها تنكمش وتضغط على أطراف ثوبها. رأيت ألما صادقا.

اجتاحتني موجة الأفكار والتحاليل، وكنت متعبا أنتظر لحظة لجوئي إلى الفراش بفارغ الصبر. أعتقد أني أبالغ في أفكاري وبحثي في ثنايا ماض لم أكن شاهدا عليه... أحتاج أن أنام.
قررت ألا أفتح معها هذا الموضوع قبل الزفاف. وربما سأنتظر أكثر، حتى تحكي بنفسها؟ ربما. أو إذا أتت فرصة مناسبة.. في لحظات صفونا الحميمية. لن أصر، بل سأنتظر.
اتفقنا لاحقا أن يكون حفل زفافنا بسيطا ولن ندعو سوى أفراد عائلتينا والأصدقاء المقربين، طبعا إن وجدوا. والحق أن نورة كانت تتقد حماسا للحفل. فاشترطت فستانا كفستان العروس ودعت كل معلماتها وبعض الأصدقاء من المدرسة. بينما ما كان يعنيني حقا هو اليوم الموعود ولا شيء غيره.

يومها وجدت في عباس نعم الصديق. لم يفارقني منذ الصباح اهتم بي وساعدني في كل الترتيبات، حتى لبسنا ثيابنا وتهيأنا وتعطرنا واتجهنا نحو بيت والديها. لم يكف عن المزاح والضحك طيلة اليوم فخفف توتري

ولطف جو النهار عامة. وأخيرا وصلنا، وقفنا دقائق أمام الباب في انتظار العروس. وأخيرا خرجت أمي ضاحكة وقد علت زغاريدها في الحي، فتقدمت نحوي وعانقتني بقوة. ثم التفتت إلى سوسن وهي تتجاوز باب البيت بكل هدوء وأناة. لست أبالغ إذا وصفتها بالدمية العاجية، فستانها السكري القصير، كتفه المسدل في غنج، خصره الذي يلف خصرها الغض في انسجام، ساقان ملفوفتان كالمرمر تعتلي حذاءً زهريا لامعا ذا كعب عالٍ. رفعت رأسي إلى وجهها، كانت الطرحة مرخاة على شعرها ومحياها، فلا أرى سوى ذقنها ورقبتها وأقراطا ماسية تتدلى لهفة لملامسة الأكتاف فلا تقدر. اقتربت وأمسكت كفيها فرأيت شبح ابتسامة من خلف الوشاح ثبتت ثقتي وسعادتي.

كان الحفل لطيفا وممتعا. رأيت السعادة في وجوه كل الحاضرين: نورة، أختي، أمي، عباس، زوجته، الدكتور نجيب، جوليا أيضا. لا أدري لم أرسلت لها دعوة، لم أكن غاضبا منها، أردت أن تسمح الفرصة لتعود صداقتنا دون خلفيات ولا مصالح وقد أجابتني برسالة تهنئة وهدية قيمة. ثم هاهي تحضر حفل الزفاف وتبارك لنا وتعانق سوسن بكل لطف. ثم إنها غنت من أجلنا. ورقصت مع حبيبتي على غنائها.

أمي كانت تتفقد حسن سير الحفل ثم تأتي نحوي لتقبلني وتعانقني. هذا كل ما فعلته طيلة الوقت.

نورة وريم ربطتا علاقة صداقة تبدو متينة، فرغم فرق السن بينهما إلا أنهما صارتا على وفاق وتناغم. هذا الود بينهما خول لنا أن نتفق معهما أن تمكث نورة في بيت أمي أسبوعا حتى نسافر نحن في شهر عسل. وقد وافقتا على الاقتراح في ابتهاج.

أما فراشتي فقد كانت تنتقل بين المدعوين كالملكة المتوجة، فخامة وفتنة وسحر. ثم تعود نحوي لتضع يدها بيدي، وأحيانا رأسها على كتفي، وتخبرني أنها تحبني، وأنها تعيش أسعد أيام حياتها. كما لا تتوانى أن توحي لي ببعض الكلمات الجريئة عن رغبتها في الاختلاء معي أخيرا. ألا يجب أن أقوم أنا بهذا الفعل؟ كانت تضحك من دهشتي، ثم تمسح على خدي وتذكرني أنني زوجها الآن.

طبعا يستطيع أي كان أن يتوقع سير الأحداث إذ اختلينا حقيقة في بيتنا بعد الحفل. وستكون توقعاته صحيحة لو أنني تزوجت أي امرأة أخرى غير سوسن. أما معها هي فقد كنت على استعداد برمي كل تقاليدي وعاداتي وخجلي وترددي وطبعي مقابل أن تسعد بليلة زواجنا. حضرت برنامجا من أكل وشرب ورقص وحمّام... حتى أكون على سجيتي ولا أفسد الليلة بالارتباك. لبسَت من أجلي قميصا أسود مثيرا، وتعطرت. راقصتني ووضعت اللقيمات في فمي. عانقتني وقبلتها وسافرنا إلى كوكب ناري خلاب.

سوسن

مذكراتي العزيزة...

اليوم لم يبق في صفحاتك البيضاء سوى القليل. وهذا يناسب تماما هذه المرحلة من حياتي. إنني قد طويت كل أحداث الماضي وأصنع اليوم حاضرا ومستقبلا كما أردته دائما. أصنع حياةً سعيدة، مع رجل يحبني حقا، يحترمني ويهتم لي وبي. سوف أكتب آخر فصولك والذي هو مفتاح باقي الفصول السابقة. طالما كتمت في قلبي خوفا أن يطلع أحدٌ على ما أكتبه أما اليوم فالظروف تختلف. سأبوح لك بكل السطور التي تجاوزتها سابقا. ثم أُغلقك إلى الأبد.

غدا أبدأ في الكتابة في مذكرة جديدة. لقد اشتريت واحدة بالفعل، ذات غلاف أبيض عليه زهور بنفسجية، تُقفل بشريط حريري أخضر مموج. اخترتها عمدا، ليس من أجل أن أطبع التفاؤل على نفسي، بل لأني متفائلة حقا. أؤمن من صميم قلبي أني سأبدأ الحياة الراضية الآن. قد لا أنسى ما حدث وما فعلت في الماضي ولكني سأذكره كأنه فيلم رأيته أو كأنما حدث في حياة شخص آخر.

سأنسى مراد وكل ما يتعلق به. سأمحو جروحه التي علّم بها نفسي ووجهي. إنها فرصتي التي انتظرتها منذ زمن حتى أقلب صفحاته السوداء وأتجاوزها بكل ما فيها من ألم وغضب وأذية. لكنني سأحدثك عنها قبل أن أمحوها وذلك لأُفرغ كل العذاب والوجع، ثم أبدأ بقلب صاف.

عندما عرض علي الزواج يوما، لم يكن متحمسا أو متأكدا من الخطوة التي يخطوها. ولكنني قبلت. فكرت أنه خائف من التغيير والمسؤولية. ولأنني أعتمد على نفسي ولست من النساء الغيورات المجحفات في طلباتهن ودلالهن، فإني جزمت أنه سيغير موقفه وسيفرح دائما أنه خطى خطوة الزواج معي أنا بالذات. أعرف أن كل امرأة هي المثالية في عين رجل ما دون غيره، وكذلك أنا. ولكنني لم أكن كذلك في عين مراد، هو فقط طفل عشق لعبة في واجهة محل الألعاب وعمل المستحيل ليمتلكها. فرح بها في أول يوم اشتراها، ثم ما لبث أن أدرك أنها كغيرها. كل البهرج واللمعان الذي كان يخطف بصره مأتاه أنها ليست ملكه. نعم لقد كنت كذلك ذات بهرج. كنت أجمل الفتيات وأخفهن روحا وأحضرهن بديهة. ربما ما زلت كذلك، ولكني فقدت اليوم الكثير من الحماس. كما أن الذي يقابلك كل يوم وفي كل ساعة سيرى حتما ساعات مللك وتعبك وفتورك. لا يمكن لأحد منا أن يكون شعلة حماس طيلة الوقت، ولكننا نبدو كذلك لمن يرانا ساعات معدودة أو لمن نستمتع بصحبته فنتوهج حين نراه.

أما مراد فقد كان شابا مرحا ممتع الصحبة. كنتَ تميزه داخل أي جماعة لخفة روحه وسهولة اندماجه وربطه للعلاقات. كل الناس تعرف مرادا، لا أقصد شخصيا، ولكن يوجد مراد داخل كل جماعة، ضمن كل محيط عمل وكل عائلة. لكل منا على الأقل مراد واحد في حياته. ذلك الزعيم في المجموعة، الذي هو مدير الحوار ومركز المجلس. لا يجتمعون إلا بحضوره، وينجذبون لا إراديا إلى حيث يكون، ويدعونه طوعا وإجبارا إلى كل تلاق أو محفل. كما كان ذا طبع مسيطر مما يجعلنا نحن الفتيات في السن الصغيرة نعتقد أن إعجابه أو اهتمامه بأي واحدة منا هو انجاز... فما بالك بالزواج منه.

لم يكن هناك ما يمنعنا من الإنجاب بسرعة. ظروفنا المادية متوازنة، وليست لدينا أي التزامات إضافية أو ديون. أبصرت الفرحة بحملي في عيون الجميع حولي؛ أهلي وأهله و صديقاتي وزملاء عملي... إلا هو. لم يتوان أن يأنّبني لأني لم أتخذ احتياطاتي ويشعرني أني آتي بطفل من الشارع ليحمل هو وزره. عذره أنه ليس متأهبا لمسؤلية كهذه، وأنه يطمع في السفر والاستمتاع بشبابه ونقوده التي يتعب من أجلها، أنه يفكر في أن يتقدم لمنصب مرموق يتطلب منه مجهودا كبيرا وتَنَقُّلا متكررا... أما أنا فكان عذري أننا لم نتحدث في الموضوع يوما. اعتقدت أننا كأي زوجين، ما دمنا لم نخطط معا لتأجيل الإنجاب، فإننا ننتظر أن يحدث الحمل في أي وقت.

اليوم وبعد هذه السنين أعتقد أنه كان يتوقع ازدهارا كاسحا لحياته العملية كما كان ناجحا (من منظوره) اجتماعيا. فكيف يعقل أن يكون زعيم المجالس وقاهر قلوب العذارى يوما ما مجرد موظف عادي وزوجا لامرأة بسيطة مثلي. ولكن هل أنا من اختار حياته وطريقه؟ أنا اخترت طريقي واعترضني وعرض علي أن نكمل الطريق معا. من منا كانت سترفض مراد حياتها؟

على كل حال، عندما حلّت نورة، ملاكي الصغير، هدأ قليلا وبدأ في التصرف كالآباء المحبين الطيبين. أما أنا فبقيت في دائرة نكرانه وغضبه. صرت دابته السوداء التي يصب عليها جام غضبه وتقريعه عند كل ضائقة أو أزمة أو حتى سوء تفاهم بسيط. لا أفهم لم كان يريد أن ينسب لكل مشكل أينما صار و كيفما صار إلى سبب أو شخص؟ ودائما ما يجد سبيلا إلى أن أكون أنا ذلك الشخص. أنا السبب في كل ما يحدث معه من شُؤْم نَحْس أو أَذَى. والحق أنني بدأت أعتقد أنه على حق. وصرت أستثقل نفسي ووجودي في بيته وعلى طاولة طعامه. أحسست أني عبء، ولأنني لم أكن أطلب منه شيئا أبدا، لا أطلب نقودا ولا مساعدة في البيت، ولا حبا، ولا هدية، ولا حتى احتراما. فإنني لم أجد سبيلا لأخفف عنه أكثر. كنت أكتفي بالاستجابة له متى دعاني إلى فراشه، عله يرضى قليلا.

بدأَت صغيرتي تكبر، وبدأت أحلامي تتجدد فيها. ولأنها طفلة ذكية وذات مواهب، لم تكن ترضخ للأوامر والنواهي بسهولة. بدأت بالتمرد ككل طفل

صغير. قرأت عن مراحل حياة الطفل منذ ولادته، وبحثت كثيرا في طرق التربية التي لا تنقض شخصية البنت ولا تتركها فريسة للدلال أيضا. كل ما كنت أتمناه هو أن أنجح بتربيتها. ولكن كيف ذلك ونحن نعيش تحت سقف واحد مع زوج وأب يمُنُّ علينا بكل ما هو حق لنا. كنا مطالبتين أن يكون رضاه أولوية حياتنا. كنت أفعل ذلك طيلة سنوات. ولكنني لم أستطع أن أقنع بذلك ابنتي. لقد كانت أمل حياتي الذي عاد ليتفتّح، ولم أقبل أن تذل أو يكسر خاطرها أو تطمس شخصها.

وقفت أمامه وواجهته أنني لن أرضى بسلوكه المهمش مع نورة. قلت له أنه يجب أن يتهذب معها وأن يحترمها وإن كانت طفلة. هددته إن حاول التعدي عليها ثانية بالضرب فإن ردي سيكون أهوج. كانت تلك المواجهة صدمة له. وقد أحسست بتراجعه قليلا عن استهتاره. مضت أيام معدودة، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى سابق عهده. وقد كنت له بالمرصاد. فكرت أن أما ضعيفة وخائفة لن تربي أبدا طفلة لتصبح امرأة قوية. لذلك بقيت أواجه وأواجه حتى تنفذ قواي وأستسلم. لم يكن ليغير من طبعه الجائر، ووصل به الحد أنه كان يسخر مني فيذكرني أني لا أملك شهادة مثله، وأنه كان الأجدر أن يتزوج من امرأة من مستواه الدراسي حتى يستطيع التفاهم معها، ثم ليفخر بها أمام الناس. كان يذكرني دائما أن تشبثي بحملي في بداية زواجنا كان السبب في تكبيله أمام أحلامه العظيمة بأن يرتقي لأحسن المناصب، أين أنا من زوجة فلان صاحبة المحلات و المشاريع، أو من زوجة فلان المحامية المعروفة التي أغنت وزوجها وعائلتها. لست

سوى فاشلة. لقد كان متنمرا يستمتع بذلك. بل إنه كان فخورا بأذيته لغيره. أذكر أنه حدثني في أيام صحونا الأولى عما كان يفعله مع التلاميذ والطلاب الأصغر منه أو الخجولين في المدرسة. كان يسرد تلك الأحداث من أجل أن يضحكني ولكي لا أكسر بخاطره كنت أبتسم ثم أذكره بأن فعله مشين. فيضحك مني أيضا. لقد حكى لي كثيرا عن الفتى اسكلبيو. وطالما رأفت لحال ذلك الصغير دون أن أعرفه، حتى أنني لُمته يوما وقلت أن ما فعله يدعو للخجل. فأجابني يومها إجابة لم أنسها:

- لن أخجل مما فعلته أبدا، فقد كان كل ذلك بغرض الضحك لا غير. ولكني لا أنكر أني ندمت على مضايقتي لذلك الولد بالذات. يوم ألقيناه في المنزل المهجور استحوذت عليه روح شريرة. كنت أراها بيّنة في عينيه. لقد طاردتني تلك الروح سنوات في أحلامي ووحدتي. كنت أرى تهديدها في نظراته ومتابعته لي طيلة الوقت. ولكنني لم أعتذر منه يوما. لن ينعم بتلك السعادة أبدا.

لم أصدق ذلك، ولكن كلامه حرك فضولي وبحثت عن الرجل زمنا. كنت طامعة أن أراه وأتبادل معه بعض الكلام لا غير. أردت أن أرى الروح الشريرة في عينيه. لم أكن لأخبره شيئا مما أعرفه. ربما طمعت أن أقابلهما ببعض ثانية وأشاهد ما يحدث. ووجدته، عثرت عليه في منصة تجمع بيانات الأطباء في المدينة. ذهبت إلى عيادته الخاصة. وتظاهرت بالمرض. أعتقد أنه كشف ادعائي ولكنه اختار ألا يواجهني به، فكتب لي بعض الفيتامينات وأخبرني أني أحتاج أن أبتعد عن مصادر التوتر والإزعاج. كان

لطيفا في استقباله، سخيا في تفسيره لحالتي ولكن أمرا ما ردعني أنا أتواصل معه في غير هذا الموضوع. أهي الروح الشريرة التي رفعت جدارا أصم بيننا؟ كلا عيناه تنطقان نقاءً وطيبةً. ما رآه مراد كان انعكاسا للشر في داخله. عندما سلمني الوصفة الطبية، وقف وصافحني وتمنى لي الشفاء. فلم أجد بدا من المغادرة على الفور. لم أجد مدخلا أتحدث منه إلى رجل لا أعرفه في موضوع قد يكون نسيه. شعرت بتفاهة ما كنت أنوي فعله. بعد تلك المقابلة فقدت الرغبة في مقابلته، وعدت لحياتي الروتينية.

تشجعت يوما أن أطلب من مراد أن يساعدني في فتح محل حلويات. كنت متأكدة أني أستطيع أن أنجحه. يومها ضحك مني كثيرا وقال:

- أتعتقدين حقا أنني سأعطيك مالي الذي ادخرته طيلة سنوات لتفتحي محلا لنفسك؟ اطلبي ذلك من أمك.

أجبته أن هذا المشروع من أجلنا جميعا وليس لي وحدي، ثم أنا أطلب أن يقرضني وليس أن يعطيني.

أصر على رفضه وعلى السخرية من أحلامي البسيطة. أذكر أن نورة يومها تدخلت وعرضت علي أن تعطيني كل ما في حصّالتها. كان عرضها ألطف وأجمل ما سمعت في حياتي. ولكنه في رأيه وقاحة. وقد هم يومها بقرص أذنها ولكن هيهات أن أسمح له.

بعد فترة دخلنا في مرحلة جديدة أكثر سوءا. الظاهر أنه تعرف أو كون ثلة من الأصحاب المولعين بالسهر والسكر. لم يقلقني ذلك في البداية، إذ أنه كان يغيب أكثر عن المنزل وهو ما جنبنا تصرفاته المستفزة والجدال طيلة الوقت، مما أحل سلاما أكثر في نفوسنا. ولكن مع توالي الخروجات أثرت سهراته سلبا على ميزانية ومصاريف البيت. فالحق يقال أنه لم يكن سابقا مقصرا في مسؤولياته من هذه الناحية. ولكنه لم يتوان لاحقا عن حرماننا وتفضيل الخمر على احتياجاتنا. وأنا لم أكن قادرة على تغطية مصاريفنا على أكمل وجه. وعندما وجدت أن نورة في حاجة لأدوات وملابس أكثر من إمكاناتي، اضطررت لمواجهته يوما بسلبية تصرفاته وتقصيره. وطبعا كان رده أن هذا نمط حياته الحالي. إما أن أقبل أو أن أقبل. وقبلت. ليس لشيء، فقط لتفادي النزاع يومها مع رجل ثمل وغاضب. آنذاك، لإخماد ثورة الغضب داخلي، لجأت الى الحبوب المنومة. سعيا أن أنام وأوقف عواصف التفكير في رأسي.

اعتقدت أن تصرفي هذا سيوصلني للسلام والتصالح معه، ولكن الموقف ارتد عليّ أشنع رد. صار في كل يوم يعود فيه معربدا، ليتطلب ويبالغ في استفزازي. لم يكن يضع أي اعتبار لنوْمنا أو تأخر ساعات الليل. أي ساعة مهما تأخرت هي مناسبة من أجل أن يتشاجر أو ليطلبني للفراش كأني جارية رخيصة أو حتى ليتحدث ويضحك مع شخص ما في الهاتف بصوت عال وهو يجول البيت جيئة وذهابا. كان يتعمد أن يلكزني لأستفيق ثم

ينهمك في أخذ ما يريد دون أن يعطي بالا لموافقتي أو رفضي أو تعبي أو...كرامتي.

لم أجد حلا معه سوى التظاهر بالرضا. هذه كانت الخطوة الأولى نحو إقناعه بشرب الحبوب المنومة من يدي، ولكن على أساس أنها ضد آلام الرأس وعوارض الثمالة. آنذاك يتمدد في أي مكان ويذهب في سبات الموتى. وصارت تلك هي أيامنا العادية. إلى أن جاءت تلك الليلة...

كان في حانة ما رفقة أصدقائه. وكنت في البيت أساعد نورة على إنجاز فروضها المنزلية، وبعد أن تناولنا العشاء حدثتني عن مسابقة على مستوى عدة مدارس في صنع المجسمات. أخبرتني أنها تحتاج أن تدفع رسوم الاشتراك وتشتري كمية كبيرة من الكرتون والمواد الأخرى. ولم أكن قادرة على دفع حتى نصف المعاليم. فكرت أن أرسلها لتطلب من أبيها. ولكني تراجعت إذ خطر ببالي أن يسخر منها أو يصرخ في وجهها أو يكسر خاطرها بأي شكل من الأشكال.

يومها ولأول مرة هاتفت أمي وطلبت منها سلفة. قلت لها أن مراد في سفر وأنني لم أستلم راتبي بعد. طالما كنت أشفق على أمي أن تعرف ما أعانيه في حياتي. وقد أوهمتها دائما أني بخير، أتعمد أن ألبس أحسن ثيابي عندما أزورها وأن أضع زينتي على أحسن وجه. وقد تألمت يومها أيما ألم لعجزي أمام أبسط طلبات طفلتي، واستسلامي لطلب العون من أمي.

تمنيت يومها لو أستطيع أن أكسر ضلوعه، لو أحطم غروره وأهشم كبرياءه وغطرسته. ولكن لم يكن بيدي شيء.

كنت في قمة الحنق عندما فتح الباب ودخل دون حتى أن يلقي السلام. اتجه مباشرة نحو الحمام، وعندما خرج وقف يحدق بي لحظات وقد شوش السكر رأسه ثم استدار نحو غرفة النوم. مكث هناك بعض الوقت حتى ظننت أنه نام. فهممت أن أقوم للنوم أيضا. ولكن هاتفه رن وسمعته يجيب ضاحكا ويؤكد أنه قادم على الفور. وقفز ليرتدي معطفه. كانت الساعة الثانية ليلا، إلى أين سيذهب. اصطنعت الاكتراث وسألته بخضوع:

- الوقت متأخر هل هناك خطب؟

فأجابني دون أن يلتفت لي:

- لقد اجتمع أصدقائي في مقهى الحي بعد السهرة، سوف أنضم إليهم.

أومأت برأسي أن لا بأس، وقلت له وأنا أكظم غيظي أني سأذهب للنوم. لم يعرني أي اهتمام. تجاوز باب الغرفة وهو يتمايل سكرا. آنذاك راودتني فكرة وراقت لي إلى حد النشوة. إلى حد أني لم أتردد لحظة رغم أني لم أحدد تفاصيلها بعد. قلت:

- اسمع... أنت متعب، إنك تترنح من السكر.

التفت إلي وقد تأججت عيناه غضبا. إنه يكره أن أتحايل كي أمنعه من الخروج ويمقت أكثر أن يشكك أحد في مقدرته على الشرب كيفما يشاء. كان يهم بأن يسمعني من قبيح كلماته أكيالا. ولكنني رسمت البراءة على تعابير وجهي، وأكملت:

- سأعطيك حبة تذهب الصداع وستكون أحسن خلال دقائق. ستسهر على راحتك.

أثناء كلامي قمت بالفعل وفتحت الدرج وأخرجت الدواء. وأسرعت دون أن أنتظر رده نحو المطبخ لآتيه بكأس ماء. ربما هو الخمر قد لعبت في عقله أو أنني أديت الدور بسرعة وبصدق كما يجب، إذ لم يتردد لحظة في أخذ الحبة من يدي وابتلاعها على الفور. ومن شدة سعادتي بنجاح مخططي تعلقت برقبته لأقبل خده، ثم تركته واتجهت نحو فراشي.

- تصبح على خير، استمتع...

أجابني ثم غادر. آنذاك استلقيت على ظهري وقد غمرتني سعادة غامرة. بدأت أتخيل سيناريوهات مضحكة للغاية عن مراد المتنمر القاسي الساخر من عيوب الناس، وهو يستسلم للنوم في المقهى بين أصدقائه الذين يعتبرونه عميد المجلس. يسقط رأسه على الطاولة ويذهب في رقاد غريق ثم يعلو شخيره كخوار ثور مذبوح. سيضحكون ملء أشداقهم، ويلكزونه وربما يسقطوه عن كرسيه لاختبار مدى غوصه في الأحلام. سيتصدر الليلة حكايتهم المضحكة طيلة أسابيع وربما شهور.

أتمنى لو يصورون له مقطع فيديو وهو في تلك الحالة المزرية. إذ تصبح اللحظات خالدة بعد تصويرها. لو يتفرج عليه لاحقا وأصوات ضحكهم وسخريتهم تصم أذنيه. مراد الذي أعرفه، لو يتعرض لموقف مماثل قد يقطع علاقته بهم للأبد. بل أعتقد أنه سيحاول أن نغادر هذه المدينة حتى ينساهم وينسوه. فقط لو يصورونه... آه لو يفعلون. سيصبح هذا المقطع كابوس حياته. سيحس بما أحسست طيلة سنوات من السخرية والتنمر. سيعيش الكوابيس التي دفن فيها عشرات الناس من حوله. سيعرف أن الله حق.

وخلدت للنوم تلك الليلة على أمل الاستماع لأجمل الحكايات في الصباح. نمت على برد وسلامٍ في فؤادي. ولكني أصبحت على فاجعة.

أفقت على صوت رنين هاتفي، ليخبرني والده أنه تعرض إلى حادث بالسيارة وأنه في المستشفى. انتفضت من فراشي وارتديت ما لقيت أمامي من ثياب، أيقظت طفلتي وانطلقت بحثا عن سيارة أجرة ورأسي يعج بالتساؤلات:

- كيف حدث ذلك؟ لقد أخبرني أنه سينزل إلى مقهى الحي، لماذا يستقل سيارته؟ هل قاد السيارة وهو مخمور وتحت تأثير الحبوب المنومة؟ هو لا يعرف بأمرها! إذا كان كذلك فإن مخططي قد يقوده إلى الهلاك. أنا من فعلت به هذا. لقد أردت أن أسخر منه لا أن أقتله! يا الله... ماذا فعلت؟ لم أخذ السيارة؟ كيف لي أن أعرف

أن له وجهة أخرى غير المقهى؟ هل كذب علي؟ ربما. ولكن لماذا يفعل ذلك؟ إنه يفعل ما يشاء ومتى يشاء. لماذا يكذب؟ ماذا حدث؟ ماذا فعلت؟

لم يبق بيدي سوى الدعاء. من كان يتصور أن بعد سنوات عذابي سأدعو لسجاني أن يكون بخير! وهل لدعاء خاطية مثلي أن يستجاب؟ لم أعرف ولكني واصلت الدعاء.

عندما أعلن إسكلبيو وفاته: رأيت وجه القدر يضحك سخرية مني، أو منه، أو ربما يضحك لنا. ولكن ليس هذا ما ابتغيت. لم أرد يوما أن أتسبب في موته. وكيف؟ بعد أن يحاول هذا الجراح بالذات أن ينقذ حياته. لقد شوه مراد يوما حياة هذا الرجل، ثم شوه حياتي لاحقا. لكن انظر ماذا فعل هو و ماذا فعلت أنا.

وأخيرا، ما بقي يلح في نبش تفكيري هو سبب استقلال مراد لسيارته في تلك الليلة المشؤومة. لذلك ما أن استلمت هاتفه وبعض أغراضه من المستشفى، حتى انزويت به ركنا محاولةً البحث عن إجابة. لم أبحث كثيرا عن رمز الفتح، فمراد نفسه هو محور حياته، لذلك فلابد أن يكون الرمز متعلقا به بالذات. إنه تاريخ ميلاده. وجدت أنه اتصل في تلك الليلة في توقيت لاحق لخروجه برقم غير مسجل. دامت المكالمة ربع ساعة. ثم اتصل به إثر ذلك مباشرة أربع مرات لكن الرقم كان يقفل الخط ولا يجيب. لم أتردد في أن أتصل به في الحين، ولكنه لم يجب. آنذاك بحثت في

رسائله. وكانت الإجابة كما توقعت. ببساطة كان يخونني، أو هو يخون نفسه بالانحدار إلى مستوى منحط من التصرفات البذيئة. كان يتسامر معها ثم تشاجرا، فأقفلت الخط. وعندما حاول الاتصال مرارا بها سدت أمامه باب الحوار. آنذاك أرسل لها رسالة يخبرها أنه قادم إليها، وأنه لن يتركها أبدا غاضبةً منه، وقفل رسالته بعبارات حب لم أعهدها أبدا منه حتى في أصفى لحظاتنا. وطبعا غلبه النعاس وهو يقود السيارة وحدث ما حدث. حمدت الله كثيرا أنه كان الضحية الوحيدة لهذا الحدث. لأنه كان يستحق. وهي أيضا تستحق أن تعاقب، أو على الأقل أن تحمل بدلي شعور الذنب. كتبت لها من هاتفه الرسالة التالية:

"مساء الخير. أنا زوجة مراد. اتصلت بك لأخبرك أمرا لكنك لا تردين، ولكن يجب أن تعرفي. مراد تعرض إلى حادث وانتقل إلى الرفيق الأعلى. وسنقوم بدفنه اليوم. ولكن من المهم أن تعرفي أن سعيك لانتزاعه من عائلته لم يسر كما أردت فها أنك خسرته أنت أيضا. أتعرفين لم أقول هذا؟ لأنك كنت السبب في موته. مراد مات في حادث وهو في طريقه إليك في الليل وهو متعب مخمور ومضطرب العقل. فهنيئا لك ما فعلت."

حل البرود بفؤادي، رغم أنها لم تجب على رسالتي ولا اتصلت. ربما أتت إلى مراسم الدفن، لا أعرف فقد حضر أناس كثيرون لا أعرفهم. بعضهم زملاء عمله وبعضهم أصدقاؤه وزوجاتهم. إلا أني لم أبحث كثيرا، فقد اكتفيت بما حدث وما فعلت.

يوم رحل مراد، حل إسكلبيو بيننا. شوش حضوره أفكاري ومشاعري. هل كتب لي أن أتسبب في موت مراد وأن أحب غريمه؟ ما لهذا القدر يعبث بي؟ منذ أتى إلى بيتي وعرض أن يكون كأخ لي، وقلبي يأبى إلا أن يتعلق به. كنت أتضور شوقا في كل صباح لرؤيته. ورغم أن العراقيل ضلت تتولد أمام أي خطوة أفكر في خطوها نحوه، إلا أني واصلت في سري أحلم أن ألمس وجهه، أن أسمع اسمي بصوته، أن يقترب مني ويراني. الشيء الوحيد الذي وضعت له اعتبارا، كان نورة. كانت تخاف أن آتيها بزوج أمّ شبيه بوالدها. ولم أكن أقبل أن أقلق طمأنينتها، حتى وإن كنت أضحي بحب وليد وحقيقي. ما كان يعزيني أنه لم يحرك ساكنا نحوي. بهذا الشكل لم يكن للضغط من مأتى سوى قلبي.

ورحل عني زمنا خلف حلم ما، ولكنه بقي على وصاله مع ابنتي، مما أبقاه قريبا ولكن بدون إلحاح.

حسبت حلمه هذا إذ يتحقق يفقدني الأمل في أن يحبني. خاصةً وأن شريكه امرأة بديعة الجمال والحضور. امرأة يتمناها آلاف الرجال. وأغلب الظن أنها أحبته. ولكنه عاد. كيف؟ لماذا ؟ لا أعرف ولن أبحث. لن أنغص سعادتي بأسباب تهمها هي وليس أنا.

ما يهمني أنه أتاني وحدثني عن حبه وغلطه وتردده. يكفيني من كل ذلك أنه جزم لي أن ما يحسه هو حب صادق واختيار صائب لمن يريد أن تشاركه سنوات العمر على قدر مداه. إنه رجل طيب شريف وصادق.

محاسنه لا حدود لها، وفي نظري هو أحسن مما تمنيت يوما. اليوم أنا أعذر مراد جزئيا، فما كان بيني وبينه لا يمت للحب بشيء. الحب والعشق والوله عرفته مع إسكلبيو.

أما أنا فسأعود منذ الآن كما كنت، على طبعي الأول. سأدفن هذه الماكرة، الغادرة والقاتلة في الماضي الأسود. ولن ترى الشمس ثانيةً. سأحظى أخيرا بالحياة التي تمنيت والتي أستحق. ويحظى إسكلبيو بالزوجة التي يتمنى ويعشق.

أجل! إن ما يعرفه عني يكفيه بأن يبقى على حبي. ويكفيه لأن يقنع أنني السعادة في هذه الدنيا.

والآن بعد أن أفرغت فيك آلامي وآثامي، سأحرقك. ثم أنساك.

تميمة الحظ لا تعمل للأبد

رانية الغول

رانية الغول

تميمة الحظ

لا يعمل للأبد

مجموعة من المراهقين يحبسون زميلهم اسكلبيو في منزل مهجور، حيث يقابل في أحلك لحظات الرعب وفي جو سحري امرأة مجهولة تدّعي أنها ستهبه القدرة على الاطّلاع على خط قدره وتغييره إن أراد!

مع توالي الأحداث يكتشف أنه ليس الوحيد الذي تلقّى هذه الهدية من هذه السيدة الغامضة. ليس هذا فقط بل أن تميمة الحظ تعمل حقا إلى حد ملفت للانتباه والريبة. فعايش طيلة سنوات كابوسا اسمه الخوف من تعطل حظّه والثمن حياة المرضى بين يديه. مما يدعوه للاكتفاء بما حظي به ومحاولة الابتعاد قدر الإمكان عن الصداقات والعلاقات التي من شأنها أن تكشف سره.

ورغم ذلك تنقلب حياته بلقاء شخصيات تُأثّر قسرا في أقداره فتحرّفها، وأخرى تَتأثّر مصائرها بقرارات كتبها هو منذ سنين...

الثمن: 22 د.ت

العنوان: 4شارع الحدائق إقامة فردوس الحياة وادي الليل 2021 منوبة

الهاتف: (+216) 21 972 951

البريد الإلكتروني: nejibaboughanda@gmail.com